

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190273

UNIVERSAL
LIBRARY

Osmania University Library

Call No. 2. 1. 1. 72-

Accession No. 809

Author

Author
Title

Title

This book should be returned on or before the date last marked below

نسخ النسخ الإسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الإسلامية
وتاريخ مصالحها الإدارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والأدب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الحياة الاجتماعية وآدابها والعادات
والأخلاق الخ

تأليف

عمر بن عبد الله

منشور الهلال

الجزء الثاني

في ثروة الدولة الإسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها
وأسباب تكون تلك الثروة وأسباب انحطاطها وثروة المملكة ومدنها وقراها

(الطبعة الثالثة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

مقدمة الطبعة الاولى

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وكان لصدوره تأثير في عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحدائه عهده في هذا اللسان . فقرضته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ووردت اليها كتب الفضلاء من رجال العلم في مصر وسوريا وأوربا وأميركا وفارس والهند مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكناً لقلّة المآخذ المساعدة على ذلك فزادنا هذا كله نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا في أثناء تأليف هذا الكتاب اننا أعلننا عزماً على تأليفه ونحن لا نتوقع أن يجتمع عندنا من مواد ما يزيد على مثل هذا الجزء فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي انكشف لنا من أحوال ذلك التمدن ما لم يكن يحظر بالبال فاتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل أربعة أضعاف ما قدرناه . فصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحتها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء أخرى في مثل حجمه

كـ- اة الحز، الثاني زاد المجال انساءً ولم يعد يكفي الباقي
 "كـ" ، كما على ستة

أما هذا الجزء فموضوعه «ثروة المملكة الإسلامية» وهي ركن ع
من أركان ذلك التمدن. وقد قسمنا البحث فيها الى «ثروة الدولة الإسلامية
أي ثروة الحكومة ورجالها والى «ثروة المملكة الإسلامية» أي ثروة البلاد
وأهلها. وبمحتنا في ثروة الدولة بحثاً تاريخياً فلسفياً فابتدأنا بتاريخ تلك الثروة
من أيام النبي فالخلفاء الراشدين فبني أمية فالعباسيين. وبيننا الأسباب التي
دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول وعلاقة ذلك
بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها. حتى وصلنا الى ثروة الدولة الإسلامية في
العصر العباسي فقسمناه الى عصرين «الأول» وهو العصر الزاهر و«الثاني»
أو عصر الانحطاط. وفي العصر العباسي الاول نضجت الثروة وبلغت معظمها
ففصلنا الكلام فيه تفصيلاً. وصدرناه بتمهيد في تاريخ ذلك العصر وما ساعد
على قيام هذه الدولة. ثم عمدنا الى النظر في ثروة الدولة العباسية وقبل الشروع
فيه أتينا بفذلكرة في جغرافية المملكة الإسلامية في القرن الثالث للهجرة
شفعنناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الإسلامية بعضها الى بعض. ثم ذكرنا
ثروة العباسيين من أيام السفاح والدولة في طفولتها حتى بلغت أشدها في أيام
الرشيد والمأمون فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها في أيام المأمون
وبعده وقابلنا بينها. فكان مقدار ما يبق في بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠
مليون درهم في السنة وهي بقية لم تتفق لدولة من الدول. فعمدنا الى النظر
في أسباب تلك الثروة فأفضى ذلك الى النظر في مصادر الجباية ونفقاتها
وأسباب كثرة الخراج وقلة النفقة. فأسباب كثرة ١٠١ أ

المملكة الإسلامية.

قلة النفقة ثلاثة : (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين على الحكومة
(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية في العصر الاول نظرنا في أحوالها في عصر
الانحطاط وقدمنا الكلام بفصل في علة ذلك الانحطاط ثم مقدار الجباية
في ذلك العصر. وبحسبنا في سبب تناقصها فحدا ذلك بنا الى النظر في أسباب
قلة الجباية وكثرة النفقات - وأسباب قلة الجباية خمسة : (١) ضيق المملكة
(٢) تخفيض الخراج المضروب (٣) استئثار العمال بالجباية (٤) انشغال الناس
بالبقتن عن العمل (٥) تحول اكثر البلاد الى ضياع. واسباب كثرة النفقات
خمسة أيضاً : (١) اسراف الخلفاء ونسائهم وفيه بحث في ما بلغت اليه
ثروة نساء الخلفاء. (٢) كثرة أبواب النفقة في الدولة (٣) زيادة
الرواتب - وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفي الحكومة
من العمال والكتاب والوزراء والقضاة ثم أهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند
ورواتب أخرى (٤) النفقة على البيعة (٥) استئثار رجال الدولة بالاموال
لانفسهم ويتفرغ من ذلك بحث عن حال الوزراء في عصر الانحطاط وتقشي
داء الرشوة فيهم وما يجتمع اليهم من الاموال ويبت مال الحكومة فارغ
والخلفاء يشكون الفقر. وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء وأخذ
أموالهم بالقوة وبحسبنا مثل هذا البحث أيضاً في العمال والكتاب والحجاب
وختمنا هذا القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر في القسم الثاني وهو « ثروة المملكة الاسلامية »
أي ثروة البلاد وأهلها فتكلمنا اجمالاً عن حالة البلاد في ذلك العصر وعن
اختصاص الثروة بالمدن وأسباب انحصارها في الفئة الحاكمة ومن ينتمي

اليهم من أهل الوجاهة والنفوذ وسائر أهل البلاد في فقر مدقع . وختمنا الكلام بوصف أشهر المدن الاسلامية في مصر والشام والعراق والغرب كالبحرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها وما بلغت اليه من الثروة والعمران في عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء أهمية موضوعه ووعورة مسلكه فعمد ارباب الاقلام الى تقريره وانتقاده في الجرائد والمجلات فضلاً عن الكتب الخصوصية فرأينا في مجمل ذلك ما نشطنا لكننا رأينا لبعضهم انتقاداً لمواضع من الكتاب عدها خطأ لانها لا تطابق ما يعلمه هو من ما أخذ هذا الموضوع فرددنا عليه وبينا له ان التبعة في ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المآخذ وأسندنا كل قول من أقوالنا الى مصدر وثيق اجمع المؤرخون على صحته (راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و ٣٧٥٨) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد في حرائد أخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ في بعض المواضع - والخطأ في تعجله - لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين وقد أوردنا أكثر أسمائهم في مقدمة الجزء الاول فلو اطلع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا أنفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء ان نذيل صفحاته بالمآخذ التي نقلنا عنها تلك الحقائق ولكننا أمسكنا عن ذلك ضناً بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأياً ولا قلنا قولاً الا وسندنا فيه كتاب أو عدة كتب فالإشارة الى تلك الكتب في ذيل الصفحات تستغرق جانباً منها - على اننا لو فعلنا ذلك لكفينا أنفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء في الاخذ والرد بلا طائل

وقد توسمنا في مجمل ما قرأنا من التقارير والانتقادات رغبة حضرات الكتاب في ذكر المآخذ. وكتب اليها جماعة من أهل الفضل الغيورين على العلم يستحثوننا على ذلك وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالماً كبيراً من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه - نعي صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني ناظر العلوم والفنون في حيدر اباد دكن فانه من اوسع الناس اطلاعاً على التاريخ الاسلامي وآدابه. فلما اطلع على الجزء الاول كتب اليها كتاباً يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ولكنه انتقد اغفالننا ذكر المآخذ في ذيول الصفحات قال: « استلمت كتاب تاريخ التمدن الاسلامي بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمني بنوع خاص. ولم اعرضه على احد الا اعجب به غاية الاعجاب وظني ان تأليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستاني) ولا شك انه يقع موقع القبول في البلاد الاسلامية كلها. ولكنني انتقد عليكم امراً لا يسعني كتمانته وهو ان دأبكم في التأليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب في اوله اجمالاً من غير التزام الاستشهاد في كل محل وموضوع - وفيه مفسد كثيرة - منها اننا رأينا كثيرين من مستشرقي اوربا يذكرون اموراً مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب فنفترئ بذلك وينذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شيء يذكر ولا ماثرة تنقل - لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون في الاستنباط. فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية وما أخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مست الحاجة. ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب فالمراتب تذكر اسماء

الكتب بالخصوص لا يتميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها اه
فاما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا ان نعود الى رأينا الاول فنذيل
صفحاته بالماخذ التي اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة .
واختصرنا في ذلك جهد الطاقة ضناً بالمكان ولا يخفى ما يقتضيه هذا العمل
من التدقيق والمراجعة . وفي تقليب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة
كافية على مقدار ما بذلناه من العناء في تأليفه وخصوصاً لانه اول كتاب في
هذا الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامي من الكتب التي يلهو بها العامة للتسلية
ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي
اجتماعي يبين أسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ويتخلل ذلك ابحاث
فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض وما ينجم عنها من العبرة والموعظة
فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة اهل الاطلاع - ولم نعد الى تأليفه الا بعد ان
اعدنا اذهان القراء الى هذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات
التاريخية الاسلامية منذ عدة اعوام مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه
من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الازهان ورأينا
في القراء شوقاً الى مطالعة التاريخ الاسلامي عمدنا الى تأليف هذا الكتاب
وهو تاريخ الاسلام الحقيقي لان تاريخ الامة لا يقوم بسر دحروها وفتوحها
وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها
الاجتماعي ومصيرها - او هو تاريخ تمدنها . ولنا في ما بسطناه من وعورة هذا
المسلك عذر على ما قد يعتور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده

ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا في الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تجلي منه للباحثين . اما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والاهمة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهياكل الاجتماعية وآدابها . وأما حقيفة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير او السر من السعادة او الشقاء للمستغلين في ظله او سواهم من بني الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامي الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الهياكل الاجتماعية وآدابها وسنحصر بحسنا في هذا الجزء بثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحت في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة وأسبابها وواجهها باعتبار الدول والاعصر والنظر في ثروة كل عصر مع تفرق الثروة في الاهالي او حصرها في فئة منهم او في الحكومة أو في رجالها مع اعتبار ما يلحق ذلك من وصفه ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت معظم ثروتها في العصر العباسي . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفينا بالإشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الجبايات وما كان عليه الخلفاء واتباعهم من الغنى والبذخ وعدداً موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عوّلنا منذ اخذنا في تأليف هذا الكتاب ان نسند كل حادث الى اسبابه بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى اصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور والمملكة الاسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الاسلامية لان هذه عبارة عن الحكومة ورجالها واما المملكة فهي البلاد وأهلها . فيحسن والحالة هذه ان نقسم الكلام في الثروة المذكورة الى ثروة الدولة الاسلامية وثروة المملكة الاسلامية وتنقسم في كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبناء على ذلك سنجعل الكلام في ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور فنبداً بعصر النبي والخلفاء الراشدين فبني أمية فالعباسيين . وتنقسم كل عصر الى ابواب

بعضها للبحث في ثروة الحكومة او بيت المال والبعض الآخر للبحث في ثروة رجال الحكومة وما يستلزمه ذلك من النظر في أسباب تلك الثروة وعلة كثرتها او قلتها وتاريخ الحراج والحزبة وغيرها وابواب النفقة وغير ذلك

فثروة الدولة الإسلامية مرت في خمسة أدوار أو أعصر وهي (١) عصر النبي (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بني أمية (٤) عصر العباسيين الاول او عصر الزهو العباسي (٥) عصر العباسيين الثاني او عصر الانحطاط . اما الدول الإسلامية الاخرى في مصر والاندلس وغيرها فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد او التمثيل لان المراد بالتمدن الاسلامي انما هو التمدن العباسي الشهير

ثروة الدولة الإسلامية

(١) عصر النبي من سنة ١ — ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها او ما تحتجزه بعد تقفاتها من الاموال ونحوها فالدولة الإسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية لأنهم لم يكونوا يحتجزون مالاً ولا كان عندهم بيت مال بل كانوا اذا أصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فلها كانت تفرق في اهلها واذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة اليه . وكان النبي يتولى ذلك بنفسه وأكثر الصدقات من الماشية والابل والحيل فكان يسمها بميسم خاص بها يمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية وتمتاز عن اموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحلمى^(١) ويميسم كان النبي نفسه يسمها به^(٢) وبلغت الاموال في أيام النبي نحو ٤٠ ٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها^(٣) ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة القصد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم

(١) بالاردبي ١٧٦ (٢) البخاري ١٩٠ ج ١ (٣) شرح الموطأ (خط)

(٢) عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي . عصر العدل والتقوى كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونبذ الدنيا . وهو العصر الذي اتخذهُ المسلمون منوالاً ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السيامي وانشأت في الخلفاء والعمال المطامع وأخذوا في حشد الاموال بآية وسيلة كانت

(بيت المال) توفي النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التي قدمناها ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجيات وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الاموال ذهباً وفضة فدهشهم كثرتها ونهبوا لها - يقال ان ابا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال فقال له عمر « بما جئت » قال « بخسمائة ألف درهم » فاستكثره عمر وقال « أدري ما تقول » قال « نعم مئة ألف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال « أيها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عدداً » (١) وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين (٢) باعتبار السابمة والقرابة من النبي ولكنه نهى عن اختزان المال فقال له قائل « يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي اني لا اعدُ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا (٣) فلما كثرت الاموال في أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع اذخار المال وحرّم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة او المزارعة (٤)

(١) المقرئ ٩٢ ج ١ (٢) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٥٦

(طبعة ثانية) (٣) ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفتحي ٧٥ (٤) المقرئ ٢٥٩ ج ٢

لان أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم - اراد بذلك أن يبقوا جنداً على أهبة الرحيل لا يمنهم انتظار الزرع ولا يقدم الترف والعصف . فاذا أسلم أحد من أهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان في يده من الارض وداره الى أصحابه من أهل قريته تفرق فيهم وهم يؤدون منها ما كان يؤدى من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيفه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين^(١)

والغرض الذي كان يرمي اليه عمر من هذه القاعدة ان يبقى أهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في أعسام الجهاد ووقفاً لمصالحهم مدى الدهور . أما اذا استرى المسلمون الضياع فأنهم يستقلون بنفعها دون سواهم ولا يمضي بضعة أجيال حتى تصير املاً كخاصة بهم^(٢) وعمر يريد ان يبقها محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من اقامة فريضة الجهاد^(٣) وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموي وكان يتحدثى ابن الخطاب بكل خطواته فقال « ايما ذمي اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من ارض فأنها من فيء الله على المسلمين . وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبعيتهم »^(٤) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما

(روية الخلفاء وعما لهم) علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة . فلما توفى أبو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا ديناراً واحداً سقط من غرارة^(٥) لانه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه . وذلك أربعون ألف درهم غير ما اكتسبه من التجارة لانه كان يجبر ليستعين على النفقة ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم . فلما دنا أجله اوصى ان تباع ارض كانت له ويدفع منها بدلاً مما اخذه

(١) ابن عساكر (نسخة كريمة) (٢) كتاب الحراج لابن يوسف ١٤

(٣) ابن عساكر (٤) القرطبي ٧٧ ج ١ (٥) ابن الانبر ٢٠٤ ج ٢

من مال المسلمين^(١) وكان عنده ثوبان أوصى ان يكفن بهما

واخبار عمر بن الخطاب بالزهد والزهادة أشهر من ان تذكر . ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد اسسها على اتم دعائم الملك - أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصرة الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوم لغرابته انه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ - يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه ما فرضه لنفسه كمائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى صاحب بيت المال فاستفرضه حتى يفييه اياه من عطائه فيما بعد^(٢) ولما طمن وأحسن بدنو الاجل قال لابنه « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً فليرد من مال ولدي فان لم يف ما لهم قال آل الخطاب »^(٣) وزهده في الطعام واللباس مشهور

ويقال نحو ذلك في الامام علي فقد كان مغالياً في الزهد والعدل . ومن اقواله « تزوجت بفاطمة وما لي فراش الا جلد كبش تنام عليه بالليل وتعلق عليه ناضخا بالنهار ومالي خادم غيرها » وجاءه في ايام خلافته مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم فوجد فيه رغباً فقسمه على سبعة اسهم ودعا امراء الاسباع فاورع بينهم لينظر ايهم يعطى أولاً . ولم يبن علي آجرة على آجرة ولا لبننة على لبننة ولا قصبة على قصبة وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب وقيل انه اخرج شيئاً له الى السوق فباعه وقال « لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه » ومناقبه لا تحصى^(٤)

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان اكثرهم من اهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب احد عماله مالا من تجارة او سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبناً — كذلك فعل بسعد بن ابي وقاص عامله على السكوفة وعمر بن العاص عامله

(١) ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٣) البيهقي

١٨٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٢٠٢ ج ٣

على مصر وإبي هريرة عامله على البحرين^(١) وغيرهم

ولا غرابة في ذلك لان العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الامة فانه يفتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه . على ان الخليفة نفسه لا يولي اعماله الا من يكون على رأيه وخلقه وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزهم لاقلة تهمة — ذكروا انه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد فلما انقضت السنة كتب اليه « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده وادواته ومزوده وقصعته على ظهره . فلما رآه عمر قال « يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء » فقال « يا أمير المؤمنين أمانهاك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدين اجرها بمرأها » فقال « وما معك من الدنيا » قال « عكازة أتوكأ عليها وادفع بها عدواً ان لعيتهم ومزود احمل به طعامي » فقال « ما صنعت بعملك يا عمير » قال « أخذت الابل من اهل الابل والجرية من اهل الذمة ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وابناء السبيل فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لانيئت بك به » فقال له « عد الى عمالك »^(٢)

ولا بد لنا مع ذلك من ان نهتف هنيئة للنظر في امر يفقر الى تفسير . قلنا ان عمر لم يكن يمتلئز مالاً ونهى عن اختزانه فلو كانت الاموال التي ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم في ايام النبي وإبي بكر لهان عليه أن لا يمتلئز ولكنه فرض اعطية معينة يتساوولونها كل عام . ونعلم ايضاً ان الاموال زادت كثيراً في ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح وكلها تؤدي الخراج والجزية فضلاً عما يلحق بيت المال من الغنائم — فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ؟ يظهر انه كان يفرقه في اهل الحاجة او لعله كان يستبقى بعضه على ان يفرقه ولا يعد ذلك اختزاناً لانه انما منع الاختزان للحرب

(١) اقتناء المسلمين للاموال — على ان رأي عمر بعدم اختزان المال ينافي المبدأ الاساسي الذي تعام عليه الدول وتتأيد به السلطات لان اختزان الاموال من

ضروريات الملك . ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ولذلك لم تطل مدتهم الا ربّما انفضى عصر النبوة وزالت دهشتها فعاد الناس الى فطرهم وتسابهاوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة

وقد باشروا ذلك في أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ — ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديداً مثل عمر وكان مع ذلك اموياً فاعتز الامويون به وأرادوا أن يعيدوا لانفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية وكان نوهاسم قد سلبهم اياها بدد الاسلام لان النبي منهم^(١) فاخذ عثمان يولي الاعمال رجالاً من اقربائه وفيهم من لم يتنق الاسلام الا يأساً من فوزه على المسلمين . وكثرت في ايامه الفتوح وقاضت الغنائم فكان يستخص اهله منها باكثر من سائر الصحابة . كما فعل بغنائم افرية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (اخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢٥٠٠٠٠٠ دينار اعطى خمها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته^(٢) وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وابطل عثمان محاسبة العمال لانهم من اهله فازدادوا طمعاً في حشد الاموال لانفسهم وخصوصاً معاوية بن ابي سفيان عامله على الشام وهو اكثرهم دهاءً وابعدهم مطمعاً فكان في مقدمة الذين ابطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقروا الارضين في ايدي اصحابها كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جنود الروم فلما غلبت الروم وفر البطارقة أو قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فاقوقفها المسلمون على بيت المال فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (اي يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيه ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً فكتب اليه ان الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يندم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ومن رسل الروم ووفودهم ووصف في كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هي من قرى اهل الزمة ولا الخراج وسأله أن يقطعه اياها^(٣) . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة^(٤) وهو

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٧١ (طبعة ثانية)

(٢) اليعقوبي ١٩١ ج ٢ (٣) ابن عساکر (خط) (٤) المقرئ ٩٥ ج ١

كثير بالنظر الى رواتب العمال في تلك الايام . فلما طلب من عثمان ان يقطعه تلك الضياع اجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حبساً على فمراء أهل بيته فقرأه ذلك على العمادي في اقتناء الارضين وبيعها في ايام خلافه والاذن للمسلمين في ذلك واقتدى بماوية غيره من العمال وسائر الصحابة فاقنوا الضياع والعمار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلی وغيرهم وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واخترن الاموال فوجدوا عند خزنة بعد موته ١٥٠.٠٠٠ دينار و ١.٠٠٠.٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها ١٠٠.٠٠٠ دينار وخلف خيلاً وابلاً^(١) والظاهر ان عثمان اندفع الى تسهيل الروة على المسلمين بما زاد عنده من الاموال واغراه اهله على ذلك وخصوصاً معاوية — ثم صار امتلاك العمار مؤلواً شائعاً

ومن اسباب شيوع الاملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الارضين مما لم يتعين مالكوه على ان يدفعوا شيئاً لبيت المال بمعامل التجار أو الصنان كما تقدم . فلما حدثت منه الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فاخذ كل قوم ما يليهم^(٢)

على ان المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية في هذا الشأن لانه لم يساو بينهم فيه فنعصوا عليه وخصوصاً انهماء ورجال انهوى . وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يعني عن البيان . فقد كان هذا الرجل مغالياً في المسك بقاعدة عمر وكان يرى « ان المسلم لا ينبغي له أن يكون في ماله أكبر من قوت يومه وليامه أو شيء ينتمه في سبيل الله أو يمدد لكرم »^(٣) وكان يهوم في الشام ويقول « يا معشر الاغنياء واسوا العمراء بشر الذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكوا من نار سكوى بها حباهم وحنوهم وطهورهم » وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع القراء بقوله واوجوه على الاغنياء . فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلفون منهم وكان معاوية يشكو أمرهم من شكائهم لان أباً ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ومما قاله له على أثر نائه قصر الحضراء في دمشق وقد سأله معاوية « كيف ترى هذا » فقال أبو ذر « ان كنت بنيت من مال الله فانك من الحائنين وان كنت بنيت

من مالك فانك من المسرفين» (١) فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث اليه بالف دينار أراد أن يغير بها ثم يهبه باكتنار المال . فلما وصلت الدنانير الى أبي ذر فرقا حالاً مع أنها وصلته ابتلاءً وجأه رسول معاوية في الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فأخبره انه انفعه في ساعته . فلم ير معاوية سيلاً الا اتهامه بالفسق فكسب الى عمان « انك افسدت السام على نفسك باي ذر » فكسب اليه « احمله على قتب بغير وطا » (٢) فلما جاء المدينة حاكمه عمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جسع بني اميه وخروجهم من الحق . فأخرجهم عمان من المدينة الى الربدة بالغنف وظل هناك حتى مات فتم المسلمون بموته على عمان في حملا ما نعصوه عليه الى مفاته

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية انفسه رأى بين دعاتها من هم احق بها منه نسباً وسابقه فاحمال اليها بالمال فزدادت رغبه في الاستكثار منه لبذله في انشاء الاحزاب - ولا غرو فان المال قوة تحوّل الى ما شئته من القوى وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ولا زال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتحضر . فما من حرب او سلم او محادثة او معاهدة وما من فتح او حصار الا والمحرك عليه او الداعي اليه « المال » - وكذا ان فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب فحروا بالدهاء والسيث حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصب له الا بعد مقتل علي (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون ان معاوية إنما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام علي « ان عالياً كان يهانه معاوية بذهبه » (٣) وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك فجعلوا المال اكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم فجرّهم ذلك الى الاستكثار منه باي وسيلة كانت كما سيأتي

فالزوة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ولكن محريمها لم يبق طويلاً لان بهاءه يقتضي بهاء عمر بن الخطاب او من يكون في مثل مناقبه وهواه

(١) ابن القتيبة ١٥٦ (٢) البيهقي ١٩٩ ج ٢ (٣) المفريزي ٣٩٦ ج ٢

مع بقاء العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران . فلذلك لم يكدر يحتل العرب بالروم والفرس حتى تآقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال ومجبل ذلك فيهم رغبة بنى امية في استنصارها . فانهضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده وظل ابو بكر وعمر مضرب امثال الفوم قروناً متطاولة اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يعتمدي بهما وخصوصاً عمر ومعد كانوا يحاولون التشبه به بعله وحزمه وشده في الحق حتى ان اشهر عمال بني امية ظلاماً ودهاءً ارادوا الاقتداء به في ذلك فمهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف - يعال ان زياد بن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ثم اراد الحجاج بن يوسف أن يتشبه بزياد فأهلك ودمر^(١)

(٣) عصر بني امية من ٤١ — ١٣٢ هـ

تماز دولة بني امية عن دولة الراشدين بان السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى املاك السيامي . وتماز عن الدولة العباسية بأنها عربية بمحنة سديدة العصب للعرب كثيرة الاحتمار اسواهم . ولذلك فال أهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصاين فاسوا من حكام بني امية ومن عمالهم الامور الصعاب حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملوهم معاملة العبيد وكانوا يسموهم « الموالي » ويعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انهضوهم من الكفر واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله . وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرني » قال « وا قوماه » واذا قالوا « عربي » قال « وا بلدناه » واذا قالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » . وكانوا يحرمون الموالي من السكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالهاب ولا يمنون في الصنف معهم^(٢) وكانوا يسموهم العلوح . وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد ان يفرقهم حتى لا يجتمعوا فنفس على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه اليها . وقد تولى ذلك النفس رجل من بني عجل فمال الشاعر

وانت من نفس العجلي راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم^(٣)

(١) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ (٢) المدد الفريد ٧٣ ج ٢ (٣) المدد ٧٤ ج ٢

وسنعود الى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية في المملكة الإسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب وإنما أسرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم أنهم اغتروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم - يدل على ذلك قول سعيد ابن العاص عامل العراق « ما السواد الا بستان قريش ما شئنا اخذنا منه وما شئنا تركنا »^(١) وقول عمرو بن العاص لصاحب اخنا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو « انما أنتم خزنة لنا ان كثر علمنا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم »^(٢) . فآخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاءوا من اموال الناس وقد جبرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضئله بمال زهيد - فعل ذلك في بادئ الرأي رعيياً لهم في نصرنا ثم توالى عليه وعلى من خلفه من بني أمية الحروب مع احزاب بني هاشم والجوارح وغيرهم فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من أهل البلاد فاستخدموها من العمال من يثمنون باقتدارهم على جمع الاموال فضلاً عن الحرب . وأسوأ أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاح عبد الملك الى معاومة جماعة من مناظره على الخلافة وفيهم عبد الله بن الزبير في مكة والختار بن ابي عبيد في العراق وغيرهما فوكل ذلك الى الحجاج وامثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الاموال بحرق وبغير حق^(٣)

جور العمال ، وكان عمال بني أمية يجبرون على اصحاب الارضين من أهل الذمة في التحصيل ونحوه لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء ام لا . وكان الخراج يؤخذ على المساحة فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت ام لم تزرع وكان من شروط الخراج ان يسبق لاصحاب الارضين ما يجبرون به النواصب والجوارح . ونما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه في اخذ تلك البقية منهم فاجابه « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق

(١) الاعاني ٣٠ ج ١١ (٢) المعري ٧٧ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٠ ج ٥

وكتاب الخراج لابن يوسف ٦٢

لهم لحوماً معدون بها سحوماً» (١). والظاهر ان الضغط على اهل القرى واختاب الارعين حمل بعضهم على الاسلام احكاماً به فاصبحوا من الموالي فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والحزبة منهم فالزمهم الحجاج (٢) الخراج مع أنهم تنازلوا عن مغارسهم لاهلهم وعادروا القرى وسكنوا الامصار فراراً من تلك الضرائب فامر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج لان المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون الا في المدن التي بنوها هم . وأهل البلاد الاصيلون يقيمون في القرى للزرع والحرب فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن رأسه وصار ما كان في بده من الارض وداره الى أصحابه يؤدون عنها ما كان يؤدي من الخراج كما تهدم وينزل هو الى الامصار كالـكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك في أيام الحجاج حماية كبرة ربحاً للمساكين النجاة من الضغط فانما هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار « ان من كان له اصل في قرية فارجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » فعل ذلك في ايام ابن الاشعث فخرج الناس وهم يكون وينادون « يا محمداه يا محمداه » ولا يدرون الى أين يذهبون فاضطروا الى الانصياع للاشعث على الحجاج (٣)

ولم تسكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم فقد فعل مثله أيضاً يريد بن أبي مسلم عامل يريد بن عبد الملك على افرنجية (٤) وكذلك فعل الجراح في حراسان (٥) وغيره في ما وراء النهر (٦) وكان أهل سمرقند قد اسلموا على ان ترفع الجزية عنهم فطلبوا بأحدونهم منهم فعادوا الى دينهم

أما المتصارى وغيرهم من اهل الذمة الذين طلبوا على دينهم فيمكن في تمثيل حالهم اعتبار ما تهدد من معاملة الذين اسلموا منهم . فكانوا يسوءونهم العذاب في تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء ان اعتناق الاسلام لا ينتجهم من ذلك فعمد بعضهم الى التلبس بثوب الرهبنة لان الرهبان لا حرية عليهم . فادرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً (٧) وهي أول

(١) الماوردي ١٢٣ (٢) ابن حبان ٢٧٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٢٢٥ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن حبان ٢٧٧ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٢٤ ج ٥

(٦) ابن الاثير ١١١ ج ٥ (٧) التبريزي ٤٩٢ ج ٢

جزية أخذت من الرهبان . وأمثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني امية ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال فلهم زادوا الخراج عما كان عليه في أيام الراشدين - بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطاً فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص امير مصر أن « زد على كل امرء من القبط قيراطاً » فكتب اليه « كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ان لا ازيد عليهم »^(١) ولعل عمرأ لم يطمعه في ذلك لان مصر طعمة له . فلما انتقلت الى خلفاء بني امية بعد عمرو زادوا في الخراج ما شاؤا . وأشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ - ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الاعظم قثاروا خراجهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً . وحدث نحو ذلك على يد اسامة ابن زيد التنوخي متولي الخراج فانه اوقع في النصارى واخذ اموالهم . وكثر الامحاء الى الرهنة في ايامه فأراد أن يمنع ذلك لانه يضر في الخراج والجزية فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم ايدي الرهبان بجلعة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده . والزم كل نصراني بمنشور يحمله يدل على انه ادى ما عليه وكتب الى العمال بان من وجد من النصارى وايس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير . ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب^(٢)

على ان ذلك لم يكن برضى الخليفة ولما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامه بمصر ان يجري النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من العهود . فلم يطل العمل بهذا الامر فعاد العمال الى ظلمهم وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد في الخراج واحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني وسماً صورة اسد وتتبعهم فن وجده بغير وسم قطع يده^(٣) . وقس على ذلك امثلة كثيرة من شدة عمال بني امية على أهل الذمة والموالي وغيرهم من غير العرب

ومن امثلة ما اقترفه بنو امية من زيادة الخراج والجزية ان اهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام

(١) البلاذري ٢٢٧ (٢) المفريزي ٤٩٢ ج ٢ (٣) المفريزي ٤٩٣ ج ٢

فلما تولى عبد الملك بن مروان استقلَّ ذلك فبعث الى عامله فاحصى الحاجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح أيام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة^(١)

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على أهل الزمة والموالي ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم وذلك ان محمداً اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضي الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه «الوظيفة» فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقصاها على العشر^(٢)

وكان عمال بني أمية في فارس يحرصون الثمار على أهلها أي يحزرون مزارعها ثم يفومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها^(٣)

وكان من أساليبهم في الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الحراب . وكانوا يفرضون على الاهالي هدية في عيد النيروز بلغت في أيام معاوية ١٠٠٠٠٠٠ درهم^(٤) وفرضوا مالا على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً^(٥) وكانوا يكيلون للعامل بكيل وللأكار بكيل آخر ويكلفون اهل الخراج أرزاق العمال واجور المدى وحمولة الطعام وثمان صحف وقراطيس واجور السكاليين ومؤونتهم . واذا أتى احدهم بالدراهم ليؤديها في خراجها يفتطح الجابي منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها^(٦)

ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الاعمال من عند انفسهم دائماً بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بامر خلفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق للاستكثار منها^(٧) وكذلك فعل من جاء بعده وخصوصاً عبد الملك لانه كان شديد الحاجة الى المال ومناه

(١) البلاذري ٧٣ (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ٢٤ (٣) طبقات ابن سديد

(عن قن فلو تن) (٤) اليعقوبي ٢٥٩ ج ٢ (٥) الطبري ١٣٦٧ ج ٢

(٦) كتاب الخراج لابي يوسف ٦٢ (٧) اليعقوبي ٢٥٨ ج ٢

الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال الا اتخذها . اما لو أراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لمان عليهم ابطالها لان العمال في ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم . ولما جار عمال الاهواز في ايامه شكاهم ابو الخنار يزيد بن قيس بقصيدة بين فيها ارباحهم من اهل الرساتيق والفرى وسماهم في قصيدته وحرص عمر على مقاسمتهم ما ربحوه الى ان قال :

فماسمهم اهـ لي فداؤك انهم سيرضون ان قاسمتهم منك بالشطر
ولا تدعوني للشهادة انني اغيب ولكني ارى عجب الدهر
فبعث عمر اليهم فماسمهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلًا وترك نعلًا ولم يكنف
بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر « اني
لم آل لك شيئاً » فقال له « اخوك على بيت المال وعشور الابلّة وهو يعطيك المال
تجرب به » فأخذ منه عشرة آلاف (١)

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال فلم يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انها سنة سنّها عمر ثم تدرج الى استصفاء اموال الرعية وهو اول من فعل ذلك (٢)

فالعمدة في حفظ النظام على الرأس فاذا صلح صلحت الاعضاء . فقد رأيت ان خلفاء بني امية طلبوا المال لقيام دولتهم باي وسيلة كانت فامدوا العمال بالسلطة واطعموهم فعمد هؤلاء الى احراز الاموال لانفسهم ايضاً واقتدى بهم العمال الصغار كالكتاب والجاني ونحوهما فزادت شكوى اصحاب الارضين فاضطر العمال الى اخراج اعمال الجباية من العرب وتسلميها الى الموالي ومنهم الدهاقين اصحاب الضياع في العراق . فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعانبه بعضهم فاجابه « كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمت عشيرته او طالبته او غرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم مع اني جملةكم امانة عليهم لئلا يظلموا احداً » (٣)

وفي كلام القاضي ابني يوسف في عرض وصيته للرشد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان اولئك الصغار يجمعون الاموال بها قال « بلغني انه قد يكون

في حاشية العامل او الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له اليه وسيلة ليسوا بابرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في اعماله يقتضي بذلك الدمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية . ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي ... ويقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويفيدونهم بما يمنعونهم من الصلاة .. وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام « (١)

وكان شأن بني امية وعملهم وجبايتهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر ابن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان نفيًا منصفًا فاراد ان يرد الامور الى ما كانت عليه في ايام سمييه وحده لانه عمر بن الخطاب فاصدر اوامره الى العمال بابطال تلك المظالم وعينها باسمائها مفصلة (٢) وابطل لعن علي على المنابر . وكان اهله قد اقتنوا الضياع واخذوا كثيرًا منها من اهل الذمة بغير حق ففتح بابه للناس واعلن « ان من كانت له ظلامة فليأت » فاتاه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ومنهم من يشتكي اختلاس ماله وآخر اغتصاب ضيعته وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو ان الحكم على ابنه او اخوته او ابناء عمه (٣) فقال له بعضهم « وكيف تصنع بولدك » فبكي حنواً وقال « اكلمهم الى الله » واخذ اموال اعمامه واولادهم وسماها « مظالم » فلما رأى أهله ذلك خافوا على سلطانهم وهو انما قام بالمال فاذا خرجت الضياع والاموال من ايديهم ذهب ضياعاً فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فاته فقال لها « ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة » (٤)

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتنموا الفرصة وشكوا اليه ما يفاسونه من الذل والضغط . وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد ارسل الى عمر بن عبد العزيز في الشام وفداً رجلين من العرب ورجلاً من الموالي فتكلم العريبان والمولى ساكت فقال له عمر « ما انت من الوفد ؟ » قال « بلى » قال « فما بمنك من الكلام » فقال « يا امير المؤمنين عشرون الفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا

(١) كتاب الخواج ٦١ و٦٢ (٢) الطبري ١٣٦٦ ج ٣ وابن الاثير ٢٩ ج ٥

(٣) الجيس ٣٥٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٣٠ ج ٥

ورزق وصلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالجراح وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان» (١) فقال عمر «أحر بمنلك ان يوفد» وكتب الى الجراح «انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية» فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه ففيل للجراح «ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفووا من الجزية فامتحنهم بالختان» فكتب الجراح الى عمر بذلك فاجابه «ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتماً» (٢)

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح وكان حيان قد كتب اليه «أما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار اتهمت بها عطاء اهل الديوان فان رأى امير المؤمنين أن يأمر بفضاؤها فعل» فكتب اليه عمر «أما بعد فقد بلغني كتابك وقد ولت لك جند مصر وأنا عارف ضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً. فضع الجزية عن اسلم قبج الله وأريك فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جايياً — ولعمري لعمري اشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه» (٣)

وقس على ذلك عماله الآخرين فانه عزل من لم يوافقهم فاصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لانه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والطفرة محال. وما في بني امية وعمالهم الا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات فقتلوه بالسهم وبعثه المؤرخون من الخلفاء الراشدين (٤) واذا قالوا «العمريين» أرادوه وعمر بن الخطاب (٥)

فتري مما تقدم ان الفوائد الاساسية التي قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شؤونها. ولو اتبع لعمري ابن عبد العزيز أن يعيدها الى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لاحت مظالم بني امية ولكنه جاء في غير أو انه فذهب سعيه هدرأ. ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى أشد مما كانت عليه قبله وبالعالم في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الجراح وزادوه حتى اضطر بعض اصحاب الارضين الى الاجاءاي

(١) الطبري ١٣٥٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٣) المقرئ ١٧٨ ج ١ (٤) الحبيس ٣٥٤ ج ٢ (٥) القرمانى

ان يلجئوا أراضهم الى بعض اقارب الخليفة أو العامل تميزاً به من جباة الخراج كما سيأتي
أما الخلفاء فلمهم ازدادوا انغماساً في الترف وأولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع
الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بحاربيته سلامة وحبابة وحديثهما
مشهور^(١) وخلفه اخوه هشام وكان بخيلاً وفي ايامه زادت الضرائب في مصر
على يد ابن الحبحاب كما تقدم . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل
ابيه في اللهو والخمر فقتله اهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ وكان
عازماً على اصلاح الامور اقتداءً بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب القاه
عند مبايعته^(٢) فاصابه من الفشل نحو ما اصاب عمر لان الاحوال غير ملائمة .
وفي ايام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو امية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر واصبحوا لا ينظرون الى
ما يؤيد سلطانهم ولا يباليون في انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملاً بأشارة جارية
أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجعيد بن عبد الرحمن . وكان الجعيد
قد أهدي امرأة هشام قلادة من جوهر فاعجبت هشاماً فاهدى هشاماً قلادة اخرى
فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هـ^(٣) وبلغ ممن الجارية في أيام بني امية
١٠٠٠٠٠٠ درهم وهي الذلفاء^(٤) واصبح العمال لا هم الا حشد الاموال
والاستكثار من الصنائع والموالي ولم يعد أهل العدالة يرضون بولاية الاعمال مخافة
أن يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء . كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاه سليمان
ابن عبد الملك العراق فقال يزيد في نفسه « ان العراق قد اخربها الحجاج وأنا اليوم
رجاء أهل العراق ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالخجاج
ادخل على الناس الحرب واعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقهم الله منها ومتى لم
آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني »^(٥) وقس على ذلك رأي غيره ممن
يؤثرون الرفق . فلم يرغب في الولايات الا اهل المطامع . وجعل الخلفاء من الجهة
الاخرى يطعمونهم بالرواتب الفادحة فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراق
في اواخر ايام بني امية ٦٠٠٠٠٠ درهم^(٦) وكان العمال يذلون جهدهم في اختزان

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ٨٠ (طبعة ثانية) (٢) ابن الاثير ٣١٧ ج ٥

(٣) ابن الاثير ٧٢ ج ٥ (٤) اعلام الناس ٣٥ (٥) الطبري ١٣٠٦ ج ٢

(٦) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

الاموال لانفسهم لعلمهم ان الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري امير العراق في أيام هشام ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم ^(١) أي نحو مليون دينار . فاصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال . وكانوا في أيام معاوية يشاطرون العمال اقتداءً بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من أموالهم كما فعلوا بخالد القسري اذ وصى به كاتبه حيان النبطي انه فرق ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم . فبعث هشام اليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ^(٢) ويسمون هذا العمل استخراجاً وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية

أما ارتفاع الدولة الاسلامية في أيام بني أمية أي مقدار ما كان يجتمع لهم من الخراج والجزية وغيرهما فقد ضاع تفصيله في جملة ما ضاع من اخبارهم في الفن . على ان المملكة الاسلامية بلغت في أيامهم اتساعاً عظيماً نحو اتساعها في أيام العباسيين ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . واما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والحياة . على ان كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لان قدم الامويين لم تكن راسخة فيها

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال وقد فصّلنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٢١٤ (طبعة ثمانية) وخلاصته ان متوسط جباية العراق في ايامهم نحو ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم وجباية مصر ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار (أو ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار (أو ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦٠٠٠٠٠٠ درهم يضاف اليه أموال البلاد الاخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج في أيام بني أمية بكثرة ولكنها لا تسمى ثروة لأنها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علياً والحسين بن علي والختار بن ابي عبيد وعبد الله بن الزبير وحاربوا الخوارج وغيرهم ناهيك بما كان يقوم من الفتن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والامراء في البذخ واللهو والقصف

(١) ابن خلدون ٩٦ ج ٣ (٢) اليعقوبي ٣٨٨ ج ٢ وابن الاثير ١٠٤ ج ٥

(٤) الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً : العصر الاول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهي يمتد من أول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ هـ الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هـ وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذي نحن في صدده وفيه أدركت ثروة الدولة الإسلامية أعظم ما بلغت اليه في عصر من العصور وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب والعصر الثاني ويعبرون عنه بعصر التفهقر او الانحطاط يبتدىء بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينتهي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد وفيه تفهقر التمدن الإسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة حتى انحلت عراها وانقضت أيامها

العصر العباسي الاول من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

« سبب قيام هذه الدولة » رأيت في ما تقدم ان العصر الأموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسة الدنيوية وان خلفاءها وعمالها انما كان همهم جمع المال . وانه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب أهله للعرب واحتقارهم سائر الأمم وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وغيرها وفيهم القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان وغيرهم - حتى الذين أسلموا منهم . فاصبحت تلك الأمم تنئ من معاملتهم وزادها نقوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الحراج واصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينسرون كل من دعا الى خلعهم ^(١) وخصوصاً الموالي فانهم باعتناقهم الاسلام خسروا اراضيهم ومنازلهم واصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو أمية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء كما تقدم . وكان مناظرو هذه الدولة يغتنمون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الارزاق . وأول من فعل ذلك المختار بن أبي عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالسكوفة . فعظم ذلك على العرب وقالوا « ان المختار قد آذى بموالينا

فحملهم على الدواب وأعطاهم فيتنا « فقال لهم الختار يومئذٍ « اذا انا تركت موالكم وجعلت فيكم لكم تهاتلون معي بني أمية ٠٠ ٪ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم « ان اطعموني لم تخرجوا لاني اخاف ان تتفروا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم ٠٠٠ ثم معه عبيدكم ومواليكم وكفة هؤلاء واحدة ٠ ومواليكم اشد حنفاً عليكم من عدوكم فهم مهاتلونكم بشجاعة العرب وعداوة العجم » (١)

وكان ذلك شأن الموالى مع كل من قام يدعو الى خلع بني امية ولذلك كثرت الخوارج في أيامهم وقام في نفوس العرب ان الخلافة لا يستتر فيها المرسية (٢) على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد اجبال . اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من أهل بيت النبي وفيهم العلويون من نسل الامام علي ابن عم النبي والعباسيون من نسل العباس عمه . وكان الخراسانيون من اكثر الناس نفعة على بني امية للأسباب التي قدمناها . فاختاروا بيد العباسيين قاتلهم ابو مسلم الخراساني . ولما نهضوا نهض معهم كل المسلمين غير العرب في كل أنحاء المملكة الاسلامية فضلاً عن أهل البلاد غير المسلمين . فدارت الدائرة على بني امية وتأييد العباسيون فجعلوا عاصمتهم في العراق بالعرب من نصرائهم

وعرف العباسيون علة سقوط بني امية فتجنبوا الوقوع في مثلها فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس واستبقوا الحند العربي ايضاً من ربيعة ومضر رغبة في المحافظة على العصبية العربية لأنها عماد الاسلام . ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين لأنهم سيعوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزيي بالبنسهم من العالانس ونحوها - جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم . واول من اخذ الناس بلبسه المنصور سنة ١٥٣ (٣) فامرهم بلبس العالانس الطوال المفرطة الطول فقال ابو دلامة :

وكنا نرجي من امام زيادة فزاد الامام المصطفى في العالانس

نراها على هام الرجال كأنها دنان بهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الامور فاتخذ الخلفاء امهات اولاد

(١) ابن الاثير ١١٣ ج ٤ (٢) الاستقصاء ٦٠ ج ١ (٣) الطبري

من الفرس اولدوهن اولاداً تولوا الخلافة وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسي. وازداد هذا العنصر تغلباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يذلون جهودهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية لان في قيامها صلاح بلادهم

(العرب والبيعة) على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب وفيها الحرمين الكعبة وقبر النبي وفي احترامهما احترام الدين الاسلامي وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك انهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل علي وهم في حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهم من المنزلة في الخلافة والبيعة وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم ^(١) فشق ذلك على الفرس وخافوا ان يرجع النفوذ الى العرب فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم أدراج الرياح فسموا في اغفال بلاد العرب . ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها وهي حج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فخبب بعضهم الى المنصور ان يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس فبنى بناءً سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة ^(٢) وقطع الميرة في البحر عن المدينة ^(٣) فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل علي وخلصوا بيعة المنصور وقد أفتى لهم بذلك مالك ابن انس الامام الشيرازي ^(٤) . وكان بنو امية في الاندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد ان دعوا لهم مدة قصيرة ^(٥) عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٥ (طبعة ثانية) . واستقل عبد الرحمن بالاندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور وبذل قصارى همه في قتله ولم يستطع ذلك الا بعد العناء الشديد

فكان ما قاساه المنصور من عواقب احماله الحرمين عبءاً لحلفائه فلما تولى ابنه المهدي اكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالاً عظيماً جاء به معه من العراق مقدار ٣٠٠٠٠٠٠ درهم وجاءه وهو في المدينة ٣٠٠٠٠٠٠ دينار من مصر و ٢٠٠٠٠٠٠ دينار من اليمن فقرقها كلها وفرق ١٥٠٠٠٠ ثوب

(١) او البدء ٢٠٩ ج ١ (٢) الطبري ١٩٧ ج ٣ (٣) ابن الاثير

٢٦٦ ج ٥ (٤) ابن الاثير ٢٥١ ح ٥ (٥) ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ و ٤٥ ج ٦

وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣

ووسع المسجد واتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الارضين ^(١) وامر بحفر نهر الصلة بواسطة واحيا ما عليه من الارضين وجعل غلته لصلات اهل الحرمين والنفقات هناك ^(٢) واصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة في بني العباس في اثناء حجهم او عند طلب البيعة لاولادهم فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابناه الامين والمأمون فلما وصل المدينة اعطى فيها ثلاثة اعطية عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك في اهل مكة وبلغ ما فرقته ١٠٥٠٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للامين وآخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة ^(٣) واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور والحلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت اقدامهم في الملك

على أنهم كانوا من الجهة الاخرى لا يستفنون عن الفرس وهم وزرأؤهم ومشيرهم . فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله ^(٤) لان امه فارسية . والامين امه عربية هاشمية ^(٥) وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على ازمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس فشق ذلك على العرب وتقموا عليه وارادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده ^(٦) فازداد كرهاً لهم . ورد لهم فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل « يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » فقال له « اكثر عليّ والله ما ازلت قيساً من ظهور خيلها الا وأنا أرى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد وأما اليمن فوالله ما احببتها ولا احبتي قط وأما قضاة فساداتها تنتظر السفيفاني حتى تكون من اشياعه واما ربيعة فساخطة على رما مذ بعث نبيه من مضر » ^(٧)

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً في عيون أهل الدولة وتقصرت ايديهم عن اعمالها حتى في مصر فان آخر عربي تولاه غنبة بن اسحق الضبي سنة ٢٣٨ هـ ^(٨) وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد

(١) الطبري ٤٨٣ ج ٣ (٢) فدامة ٢٤٢ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

(٤) ابن الاثير ٩٢٠ و ٩٢١ ج ٦ (٥) الطبري ٩٣٧ ج ٣ (٦) ابن الاثير ١٢٦ ج ٦

(٧) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦ (٨) المقرئ ٤٥٥ ج ٢

العرب جميعاً وكان قد بنى سامراً بهرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى وعرفات غرة به امراء كانوا معه لما طابوا الحج خشية ان يفارقوه ^(١) فاصبح لفظ « عربي » مرادفاً لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم « العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه » ^(٢) وقولهم « لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبي ينصره الله به » ^(٣) واصبح الامراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال وقلت العناية بالعرب واحزابهم

وكان العرب من الجهة الاخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ويطعنون بمن يميل اليهم ولو كان من الخلفاء ولذلك فلما مات المعتصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخراعي الشاعر المشهور في الصميرة فلما جاءه نبي المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد ^(٤)

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الاسلامية كانت في عصر الراشدين عربية وكان عرضهم الاول نشر الاسلام في الارض يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولوا بنو امية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم الى المال وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الامهات . ثم أصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراغة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سنرى

(١) المقدسي ١٢٢ (٢) ابن الاثير ٢١١ ج ٦ (٣) الطبري ١٥٨٨ ج ٣

(٤) الجزء الاول ١٦١ (طبعة ثانية)

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبق في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الاطلاق اذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة اكثر منه وتقع الدولة تحت العجز . فاذا اغبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الاول فاحشة - وان كنا لم ننف على ميزانيتها في عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه بارتفاع الدولة لضياح حساباتها في الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين ^(١) وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني أمية في عام الجحاح ^(٢) - ولكننا نعلم مقدار الثروة في أيامهم مما كانوا يخزنونه من المال في أثناء حكمهم

(الثروة في أوائل الدولة) فالخليفة الاول أبو العباس السفاح لم يحكم الا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ - ١٣٦) قضاه في الحروب ولم يجمع مالا . ولما مات لم يجدوا في بيته الا تسع جبات وأربعة أقمص وخمسة سراويلات وأربعة طيالة وثلاثة مطارف خز ^(٣) . وأما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ - ١٥٨) وكان رجلاً حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه - لا عن بخل ولكنه كان يخاف الفتن . فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠ . ٠٠٠ . ٠٠٠ درهم و ١٤ . ٠٠٠ . ٠٠٠ دينار ^(٤) وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً كان مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠ . ٠٠٠ . ٠٠٠ درهم (والدرهم نحو فرنك) . فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدي قائلاً « قد جمعت لك في هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها فانك

(٣) الطبري ٨٨ ج ٣

(٢) الماوردي ١٨٣

(١) قدامة ٢٣٦

(٤) المسعودي ١٧٧ ج ٢

لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً» (١) ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على ان سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء وهو بالحقيقة مؤيد دولة بني العباس حارب في سبيل سلامتها حروباً كثيرة انفق فيها اموالاً طائلة منها ٦٣.٠٠٠.٠٠٠ درهم أنفقها في حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ فاعبر ما انفعه في الحروب الاخرى وهي كثيرة - فضلاً عما كان يبذله لاهله فانه بذل لخدمة منهم في يوم واحد ١٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٢) وأنفق على بناء بغداد وحدها ٨٣٣.٠٠٠ درهم (٣) ناهيك بما كان ينفعه على اصلاح الري وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تعديراً وصل الى بيت المال في أيام المنصور بمليار درهم (١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) على الأقل . فاذا قسمت ذلك على سني حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم سوى الاموال التي كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج أموالهم . لانه كان اذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مال مستعمل سماه « بيت مال المظالم » وكذب على كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى انه المهدي في ذلك قائلاً « قد هيأت لك شيئاً فاذا أنا مت فادع من أخذت ماله فارده عليه فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة » (٤) ففعل المهدي ذلك ما تولى . وقد ببادر الى الذهب ان المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بني امية بعد قهرهم وهي كثيرة ولكن تلك الاموال ظلت منمردة في خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت الائمة » (٥)

وثرروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر الى ثروة الرشيد فمد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم ونيفاً (٦) ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفعه الرشيد وما بذله وأسرف فيه وكرمه مشهور . وقد يخطر في البال ان هذا المال تجمع من أيام المنصور فالهدي فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في أيام الرشيد . والواقع ان المهدي أنفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جبا في اثناء خلافته (من سنة ١٥٨ — ١٦٩) (٧) لانه كان كثير السخاء . ولم يحكم الهادي الا سنة وبعض السنة ويروى من فرط سخائه انه اعطى عبد الله بن مالك اربعمائة

(١) الطبري ٤٤٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) القندي ١٢١

وسير الملوك ٥٤ (٤) الطبري ٤١٥ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٤٠ ج ٦

(٦) الطبري ٧٦٤ ج ٣ وابن الاثير ٨٥ ج ٦ (٧) السعدي ١٧٧ ج ٢

بقل موقرة دراهم وغيرها فلا يعقل ان يجتمع عنده مال يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد في بيت المال انما جمع في أيامه واذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة ^(١) وكان المنصور متهماً بالبخل ^(٢) ناهيك بما كان من أمر البراءة في أيام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الاموال مما هو معلوم

ولمات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة وتحاربا وكان الامين في بغداد وقد أته امه رييدة بخزائن أبيه ^(٣) والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين في اثائها كل ما كان في بيت المال مع ما انفعه في خاصته . لانه انقطع في اثناء خلافته الى اللهو والحمر وبذل الاموال في طلب الملهين وضمهم اليه واحرى عليهم الارزاق واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه من الحصيان والنساء ^(٤) فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوفى الامر في المشرق والمغرب للمأمون وزاد نفوذ الخراسانيين في أيامه لانهم هم الذين أعادوا الملك اليه واستتببت السكينة في المملكة العباسية واشتغل المأمون في نهل العلوم الى العربية وسنأني على تفصيل ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب

أما الثروة في أيام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وابي جده المنصور ولسكننا لم نفد على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القليل لعاة عناية مؤرخي تلك الايام في هذه الابحاث

على ان اذخار المال اصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠ — ٣٥٠) جمع في بيت ماله الى سنة ٣٤٠ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار ^(٥) وكانت جباية الاندلس في أيامه ٥٤٨٠٠٠٠ دينار ومن السوق

(١) الطبري ١٣٣ ج ٢ (٢) اس الانبر ١٢ ج ٦ (٣) ابو الفداء

٢٠ ج ٢ (٤) ابو الفداء ٢٢ ج ٢ (٥) ابن حوقل ٧٧

والمستخلص ٧٦٥ ٠٠٠ دينار الجملة ٦ ٢٤٥ ٠٠٠ دينار ما عدا اخماس الغنائم فلها كانت كثيره ^(١) وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط ^(٢) وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ولم يذكر ذلك جزافاً ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ قنطار ^(٣) وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعده ان ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدّر ما اجتمع في بيت مال الحكم بن الناصر بعد موت ابيه من خدمه والمصاردين وغيرهم فلم يزد على ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر ^(٤) وكانت بغداد يومئذ في عصر الانحطاط وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضاً

أما في أيام المأمون فالمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نفلاً عن « جراب الدولة » ^(٥) وهي أقدم جريدة او قائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية . تليها جريدة اخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخري رواها ابن خرداذبه وكلها لا تتجاوز اواسط القرن الثالث للهجرة وسنذكر كلاً منها ونعابلي بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة ولكتنا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية ان نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في أيام المأمون ونتضح نسبة اعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية

جغرافية مملكة الاسلام

في عصر المأمون

(حدودها) يحدها من الشرق أرض الهند وبعض الصين وبحر فارس ومن الغرب مملكة الروم ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا

(١) نفع الطيب ١٦٩ ج ١ (٢) ابن خلدون ٣٠ ج ٢ (٣) ابن خلدون

١١٥ ج ١ (٤) ابن حوقل ٧٧ (٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السريز والحزر والالان في آسيا وجبال البيرينيه في أوروبا . وفي خارطة هذه الايام بلاد سيبريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الاول صفحة ٩٧ (طبعة ثانية)

وتقسم هذه المملكة الى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والازمنة وسنين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافي العرب في تلك الايام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه . فهي تقسم الى سبعة وعشرين أقليماً منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي :

(اقاليم المغرب)

الشام	ديار العرب
بحر الروم	بحر فارس
الجزيرة	ديار المغرب
	مصر

(اقاليم المشرق)

الحيلال	العراق
الديلم	خوزستان (الاهواز)
طبرستان	فارس
جرجان	كرمان
قومس	مكران
مفازة خراسان	طوران
سجستان	السند
خراسان	ارمينية
ما وراء النهر	اذريجان
خوارزم	بلاد الراز

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

(ديار العرب) وهي جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان —

وهو مصب ماء دجلة في البحر - فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جدة ثم يمتد الى مدين حتى ينتهي الى ابلة . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ابلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب النبالى برأ بلاد الشام وفلسطين بخط منحني يمتد من ابلة الى البحيرة المنتنة فالشراة فالبلقاء فاذرعات وسامية فالخناصره الى الفراب الى الرقه وقرقوبسيا والرحبه فالكوفة الى البطائع فواسط الى عبادان

وتقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة والنجامة ومخاليقها . ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين . وبادية العراق . وبادة الجزيرة . وبادية الشام . واليمن المشتعلة على نهامة . ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن

(١) بحر فارس : ويراد به عندهم كل البحور المحبطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق الى ابلة (١) ويدخل فيه ما نعر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهنا وصفه في هذا المقام . ديار العرب : يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر عرباً ويدخل في ذلك (١) برفة (٢) افريقية وهي تونس (٣) تاهرت في الجزائر (٤) طنججة والسوس وزوالة في مراکش

اما برفة فهي مدينة وسط واحة في مستوي من الارض حصبة يطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر وبناتها وبين افريقية مدينه طرابلس الغرب وهي من عمل افريقية مبنية من الصخر وبابها المهدية ثم تونس وهي كبيرة حصبة ثم البربران وهي عاصمة افريقية واكبر مدينة فيها واحة في البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدينها أيضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء

ويجعلون الاندلس جزءاً من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة . ومن اشهر مدينها حيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجاره ورجالة وقورية وماردة

وباجة وغافق ولبللة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها سننزين ومالعة وحبل طاروق وغير ذلك

(مصر) وحدود مصر في تلك الايام مثل حدودها اليوم نهرياً ويأبحون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الاحمر فالعقبة

(الشام) ويراد بها سوريا على المسموم وتقسم الى سبعة اقسام (١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق (٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول اجناد الشام عرباً يحده من جهة مصر رفح ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأرحا وببت لحم وعرة والنسراء والبحيرة المنمنة وغور بيسان ونابلس وكات قصبة فلسطين الرملة ويأبها في السكر بيت المقدس وجند الاردن قصبته مدينة طرية

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق وهي أعظم مدن الشام على الاطلاق وهي معروفة

واما جند حمص فقصبته مدنته حمص وهي مشهورة وانبعاها انطارطوس وسامية بطرف البادية وسنزر وحماد وكاسا صغرين

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة الى اليوم وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها مدينة قنسرين وهي صغيرة ومعروفة النعمان

وأما العواصم فراد بها أعالي الشام وراء حاب الى الاسكندرونة وقصبته انطاكية وهي تلي دمشق بالتراهة . وكانت عاصمة الشام على عهد الروم وكان عليها سور ضخم للغاية قيل ان دوره لاراكب يومين (١) ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية

اما الثغور فهي ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس في اسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سمساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور وحص منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس . وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور

عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ولذلك كان عندهم ثغور شامية أي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية اي الحدود مما يلي الجزيرة (بحر الروم) ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في غرضنا الآن

(الجزيرة) بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين يسمى القسم الشمالي منها الجزيرة والجنوبي العراق والفاصل بينهما تكريت على دجلة والانبار او هيت على الفرات . ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض المواضع . بمحدها من الشمال ميافرقين وما يليها غرباً الى الفرات قرب ملطية ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ويحدها من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الحبال واذريجان

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . من أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة العرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ليس في الجزيرة بلد فيها نخل مثلها . ونصيبين وكانت ازه بلد في الجزيرة . ودارا وهي صغيرة . ورأس عين مدينة مستوية الارض في دار مضر وآمد في اعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة ايضاً ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفي اواسطها ايضاً حران وهي مدينة الصابئين . والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان . وسروح مدينة خصبة كثيرة الاعناب

وفي الجزيرة مغاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الاسلام . وهم أهل خيل وغنم وابل على أنهم متصلون بالهرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان اكثر اهلها نصارى

(العراق) هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره طوله من تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس في الجنوب وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب الى حلوان في الشرق . ومحيطه اذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقياً الى حلوان فالسيروان والصيمرة فحدو- السوس الى عبادان ثم يعطف الى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائعها الى الكوفة ثم على الفرات الى الانبار ومن

الانبار شمالاً الى تكريت . ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد . هذه حدود العراق في ابان التمدن الاسلامي وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لأن مجاري الأنهر تغيرت وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر

واشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته وعاصمة المملكة الاسلامية في ابان مجدها بناها المنصور . والبصرة وهي مدينة عربية بناها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب والبصرة بطائع سيأتي تاريخها في موضع آخر . وواسط مدينة عربية أيضاً بناها الحجاج في وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب . ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن . وحلوان في آخر حدود العراق شرقاً وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

(خوزستان) هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الحبال ومن الشرق فارس وأصبهان ومن الغرب العراق ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز واليهما تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتقسم الى كور أولها كورة الاهواز . ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم . وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

(بلاد فارس) وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ويحدها شمالاً اصفهان وبادية خراسان ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتقسم بلاد فارس الى خمس كور اكبرها كورة اصطخر قصبته اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبته جور وفيها أيضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس وبها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دار المجرد وكورة ارجان قصبته مدينة ارجان ثم كورة سابور وهي اصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حي يعيشون بالمرعى والحرب في بقاع يقال لها روموم . ويقدر تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠ ٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب العرب . وقد يكون في البيت الواحد من الارباب والاجراء والرعاء بنحو عشرة رجال فاذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الاكراد ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل وباعتبار ما يلحقهم من النساء والاولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

(كرمان) هي اكبر من فارس واقعة بين فارس في الغرب ومكران وسجستان في الشرق ويمحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس وأشهر مدنها الشيرجان وم وجيرفت وهرموز

(مكران) هي شرقي كرماني والى شرقيها طوران وبعض بلاد السند وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس وهي اكبر من كرماني ومن مدنها التيز وكيز ودرك ورسك

(طوران) هي أصغر من فارس واقعة بين مكراني في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب وأشهر بلادها محالي وكيزكانان وقصدار

(السند) والسند آخر حدود مملكة الاسلام في الشرق واشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهند برهاناباد ومنها الديبل على شاطئ البحر والمثلثان وغيرها . أما المنصورة فلها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة وأهلها مسلمون . ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند

(ارمينية) هي في أعالي مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق اذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال الفبق (الفوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قضبتها ديبل وفيها دارالامارة والنصارى بها كثيرون ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميفارقين ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا

(اذربيجان) هي شرقي الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وارمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال . عاصمتها مدينة اردبيل وفيها العسكر ودارالامارة طولها ميلان في ميلين وبلي اردبيل بالكبر المراغة وكانت قبلا دارالامارة وتليها ارمية على شاطئ بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرند وشيز

(بلاد الران) هي شمالي اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب ارمينية ومن الشمال جبل قيق ومن الجنوب اذربيجان اكبر مدنها مدينة برذعة ثم قفليس والباب ومنها يلقان والشاوران وغيرها

(الجيلال) يراد بالجيلال جبال فارس وهي تقسم إلى كورا شهرها ماه الكوفة وهي الدينور و ماه البصرة وتسمى نهاوند. ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس ومن الغرب العراق والجزيرة ومن الشمال اذربيجان والديلم والري وقزوين ومن الجنوب خوزستان والعراق. وهي تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وما سبذان واصبهان وقم وقاشان و نهاوند والور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان. مساحة همذان فرسخ في فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد. والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها. واصبهان مدينتان بينهما ميلان. و نهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين. وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق. وشهرزور قريبة من العراق. وقزوين في أعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم. وقم مدينة عليها سور وهي خصبة. وقاسان مدينة صغيرة

(الديلم) هي جبال مطاة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض اذربيجان ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب اذربيجان. وأهل الديلم صنفان سكان الجبال وسكان السهول ومن توابعها الري وأهر و زنجان والطلالمان وقزوين والرويان

(طبرستان) وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر أيضاً يحدها من المشرق جرجان ومن الغرب الديلم. أكبر مدنها أمل وهي مركز الولاية وساية وهي بلاد كثيرة المياه و دماوند (أو دناوند)

(جرجان) هي شرقي طبرستان وشمالها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر. أكبر مدنها مدينة جرجان وهي أكبر من أمل. ثم استراباد في الجنوب ودهستان على ساطئ البحر (قومس) هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدها من الشمال. وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبته مدينة الدامغان

(مفازة خراسان) هي بادية واقعة في أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال والري وهي أقل من بادية العرب سكاناً. وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس وكرمان وهي وعره ويصعب سلوكها بالخيول لقلة الماء فيها

(سجستان) هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة يبنها وبين السند . ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . اكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

(خراسان) هي من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسم خراسان الى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا واييورد وسرخس واسفزار وبوشنج وباذغيس وكنج رستاق ومرو رود وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهي أعظم مدنها جميعاً وتسمى ايضاً أبر شهر واقعة في أرض سهلة ابنتها من طين سعتها فرسخ في فرسخ . ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وترتبتها خصبة وقد كان المسلمون منها ارتفاع عظيم

(ما وراء النهر) هي آخر بلاد الاسلام شمالاً شرقياً يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من أخصب أقاليم الاسلام وانزها وأكثرها خيراً . وأشهر نواحيها بخارا وسمرقند وكش ونخشب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند

(خوارزم) ويحدها الاصطخري تابعة لما وراء النهر فلها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصفد وتحقق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب . قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة اقاليمها بعضها الى بعض تمهيداً لما سذكروه من جباية المملكة العباسية وهي تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدي خراجه باسمه فان بعض هذه الاقاليم كان داخلاً في عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف العصر فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ويكون المراد خراج اقليمين

أو أكثر مما دخل تحت سيطرة عامله . اذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة أقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها وقبل الشروع في ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة لا بد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم أو الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الاعمال في الجزء الاول انها كانت في بادىء الراى أسبه بالاحتلال العسكري منه بالتملك . وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم وواجبتهم مرافقة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها واقامة الصلاة واقضاء الخراج وظلت أعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة في البلاد موظفين من أهالها الاصليين فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه الجباية من نفقات الجباة وغيرها ودفعوا الباقي الى الحاكم المسلم وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه اصلاح الري من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي الى بيت المال في عاصمة المملكة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية في زمن الراشدين ولما أفضى الامر الى بني أمية واضطر معاوية الى اكتساب الاحزاب زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم فازدادوا استقلالاً في أعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكن المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم في ايام عبد الملك ومن جاء بعده — الاجباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين القبط في مصر والدهاقين في العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي (١)

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . وبهمنّا في هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر ان العمال زادوا استقلالاً من هذا الفيل عما كانوا عليه في أيام بني أمية حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج اي تهيئته . وهي أن يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة الا بالمال المضروب . ويكون ذلك في امارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على افرقية وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠ ٠٠٠ دينار معونة له فلما تولاه ابن الاغلب تنازل عن هذا المال ونزل ان يحمل كل سنة ٤٠ ٠٠٠ دينار ^(١) وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً فوجه بمولى له فوزع خراج الارض باربعة وعشرين الف دينار ^(٢) وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدرأ معيناً سيأتي ذكره . وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما قبله عمران ابن موسى من السند ^(٣) ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثراً حتى آل الى استعمال الامراء بولايتهم

وجملة القول ان المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلاني انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الري وسائر السكف ^(٤) او بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة أي مجموع صافي الدخل لا ينقص منه الا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سبأني تفصيله . وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في أيام المأمون بقوله « ما يحمل الى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة » ^(٥) فبالقياس على ما تقدم تعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انه صافي اموال الجباية

(١) ابن الاثر ٦٣ ج ٦ (٢) اليعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣

(٣) ابن خرداذبة ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ (٤) المقرئ ٩٧ ج ١

(٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

جباية الدولة العباسية

في العصر الاول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية في أيام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل في السنة . والتوفيق الى ذلك نادر في تاريخ الاسلام لان القوم قلما كانوا يدونون غير حوادث الحرب والفتح والقتل . أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فعد عزنا عليها عرضاً وهي :

(١) قائمة ابن خلدون : هي اقدمها كلها وقد اوردها ابن خلدون في مقدمته في عرض كلامه عن « ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها » وقال انه نقلها عن جراب الدولة وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في أيام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن توجه التفات الفارسي لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الاعوام . وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام فرأينا خطأ في اسماء بعض البلاد الواردة في تلك القائمة نظنه وقع من النسخ لتشابه في اشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمة المذكورة . لان الخطأ اللفظي المشار اليه يجبر الى الخطأ المعنوي لوقوعه في اسماء البلاد أو الاقاليم التي حمل الخراج منها وهالك اصلاحها :

١ كنكر (١) : هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام وصوابها « كسكر » وهو أقليم من أقاليم السواد

٢ طبرستان والرويان ونهوند (٢) : فالرويان بالباء صوابها « الرويان » بالياء وهي من أقاليم الديلم وقد ذكرناها في محلها . ونهوند قسبة كورة ماء البصرة من كور الحبال كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان فالغالب أن يكون المراد بها بلداً آخر قريباً من هناك نلناها « دماوند » وهي من كور طبرستان

٣ ما بين الكوفة والبصرة (٣) : لم نر في سائر القوائم ولا في غيرها من

(١) في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ (٢) في السطر ٢١ من

الصفحة المذكورة (٣) في السطر ٢٦ من تلك الصفحة

التقاويم كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الالماني ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة دخلت في الفوائم الاخرى باسم آخر ^(١) . والصحيح على ما نرى ان النسخ اخطأوا في قراءتهم « ماين » وصوابها « ماها » أو « ماهين » مثنى « ماه » فيكون المراد « ماها البصرة والكوفة » وهما كورنان من كور الجبال قصبة الاولى نهاوند وقصبة الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية

٤ ماسبذان والدينار ^(٢) : ماسبذان من كور الجبال تقدم ذكرها وأما « الدينار » فلا مسمى لها في بلاد الاسلام . وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف « الدينور » قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معاً في هذه القائمة فهي على الغالب مبدلة من « الريان » وهي كورة بقرب كسكر في العراق وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الاقاليم صوابه ظاهر مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم والعادة ان لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم ^(٣) فالغالب ان يكون صوابها وثمانمائة الف درهم . وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم والصواب ٢٥ الف الف درهم لانها نحو ذلك في العائتين الآخرين . وكقوله في طبعة بولاق عن خراج قومس « الف الف مرتين وخمسمئة الف من نقر الفضة » ونظن الصواب « ومن نقر الفضة الف فيكون خراجها ١٥٠٠٠٠٠ درهم و١٠٠٠ من نقر الفضة » . وقوله عن العسل الوارد من الموصل انه ٢٠٠٠٠٠٠٠ رطل والاقرب الى الصواب ان يكون ٢٠٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر فقد ورد هناك انه « الف الف الف » والصواب على ما نرى « الفا الف الف » بالقياس على جبايتها في ذلك العصر . والخطأ اما وقع بالنسخ لتشابه اللفظين خطأ

أما زمن هذه القائمة فقد عينه ابن خلدون صريحاً فقال انه في أيام المأمون ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ - ٢١٨ وحساب

(١) Cult. gesch. des Orients I. 356 (٢) في السطر ٢٧ من تلك

بيت المال في بغداد احترق في الفتنة بين الامين والمأمون . ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ^(١) . فالقائمة المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و ٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١ و ٢١٢ هـ فالارجح انها كتبت بين ٢٠٤ و ٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كريم المذکور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون خلاصته انها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين بحيث تصل بعصر المهدي أو الهادي أي بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ومن أدلته على ذلك « انه ورد فيها ذكر خراج السند وافريقية وكاتنا في أيام المأمون قد استقلنا عن سلطة بغداد ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة » . والبارون فون كريم لا يستخف برأيه في تاريخ الاسلام وتمنهم وآدابهم لانه من أهل التحقيق والبحث ومن أكثر الالمان تمحيصاً للحقائق . ولكننا نراه واهماً في حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية :
أولاً : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية وقطع المال عنها . نعم ان افريقية استقل بها الاغلبة وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالا معيناً كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرها . فانهم كانوا يخطبون خليفة بغداد ويعتبرون انهم تابعون له دينياً فقط — كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان والطولونية في مصر ^(٢) وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية والبعض الآخر باسم الخراج أو الضمان أو غيرها . وزد على ذلك أن افريقية لم تكن تحمل مالا الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ أي بعد أن تولاها ابراهيم بن الإغلب وهو الذي فرض على نفسه ٤٠ ٠٠٠ دينار . فلا يبعد ان يستمر الاغلبة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افريقية من مملكتهم كل أيام الاغلبة وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الاغلبة تحت هؤلاء الولاة ^(٣) . ويقال نحو ذلك في السند بل نرى في هذه شاهداً أقرب على صحة رواية ابن خلدون فان المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦ هـ عاملاً اسمه عمران بن موسى العتكي ^(٤) عى ان يحمل

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) المقرئ ٣٢١ ج ١ (٣) ابن الاثير ٤٥ ج ٧

(٤) ابن الاثير ١٧١ ج ٦

اليه منها مليون درهم بعد كل نفقة ^(١) ويدل ذلك على سيادته عليها وان كان المال المذكور أقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون اذ يختلف المراد بمحدود السند باختلاف الازمنة . أما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبه فقد يكون سببه عارضاً اما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون أو لاسباب أخرى راجعة الى دخول بعض الاقاليم في بعض أو غير ذلك كما سيتضح من مقابلة العائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب أقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو الوهم وهو ثمة كثير التبصر والتحيص . وقد قال صريحاً ان هذه الجباية وردت على بيت المال في أيام المأمون

ثانياً : ان ابن خلدون استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج كان يرجع اليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه ^(٢)

ثالثاً : ان الديوان احترق في أيام الامين وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبناءً على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق في جانب ابن خلدون وأن يكون البارون فون كرايمر واهماً في اعتراضه وفوق كل ذي علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه المسمى « كتاب الخراج » ولم يصل الينا منه الا تنف طبعت في لايدن بعناية دي كويه المستشرق الهولندي الشهير . توفي قدامة المذكور سنة ٣٣٧ هـ وكان أبوه نصرانياً وأسلم في أيام المكتفي (من ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية والى كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر انه كتبه نحو سنة ٣١٦ هـ نقلاً عن أوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب ان ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ

(٣) قائمة ابن خرداذبه : هو عبد الله بن خرداذبه وذكر صاحب الفهرست انه كان يتولى البريد في بلاد الجبال . ويظهر انه كتب وهو في هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة ويظن دي كويه ناشر هذا الكتاب ان

ابن خردادبه كتبه سنة ٢٣٢ ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠ هـ

هذه هي القوائم الثلاث وفيها جباية الدولة العباسية في ابان ثروتها فلنوردتها باعتبار قدمها . وأقدمها قائمة ابن خلدون ثم قدامة ثم ابن خردادبه :

٦ جباية الدولة العباسية

(في ايام المأمون — نقلاً عن ابن خلدون)

اسماء الاقاليم	من الدراهم	من الاموال والغلال
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠	ومن الحلال النجرانية ٢٠٠ حلة ووس طين الحتم ٢٤٠ زطلا
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	
كور دجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الاهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	وسكر ٣٠ ٠٠٠ رطل
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠ ٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠ ٠٠٠ رطل
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠ ٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السند وما يليه	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	وعود هندي ١٥٠ رطلاً
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلاً
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نفرة و ٤٠٠٠ برذون و ١٠٠٠ راس رقيق و ٢٠ ٠٠٠٠ ثوب متاع و ٣٠ ٠٠٠ رطل اهليلج
(المجموع)	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	درهم

درهم	١٦٥ ١٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)
و ١٠٠٠ شقة ابريسم	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	جرجان
ومن نقر الفضة ١٠٠٠ نفرة	١ ٥٠٠ ٠٠٠	قومس
و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	{ طبرستان الرويان دماوند
الأكسية و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منسدل		
و ٣٠٠ جام		
و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل	١٢ ٠٠٠ ٠٠	الري
و ١٠٠٠ رطل رب الرمان و ١٢٠٠٠	١١ ٣٠٠ ٠٠٠	همدان
(رطل عسل)		
	١٠ ٧٠٠ ٠٠٠	ماها البصرة والكوفة
	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	ماسبدان والريان
	٦ ٧٠٠ ٠٠٠	شهرزور
و ٢٠ ٠٠٠ رطل عسل	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	الموصل وما يليها
	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	اذربيجان
و ١٠٠٠ راس رقيق و ١٢ ٠٠٠ زق	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	{ الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات
عسل وعشر بزة و ٢٠ كساء		
و ٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلا	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	ارمينية
من الرقم (ضرب من الوشي) و ١٠ ٠٠٠		
رطل من المسايح السورماهي و ١٠ ٠٠٠		
رطل من الصونج (نوع من الاسماك	١ ٠٠٠ ٠٠٠	برقة
البحرية) و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مہراً		
و ١٢٠ بساطاً	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	افريقية
درهم	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	(المجموع)
	من الدنانير	
و ١٠٠٠ حمل زيت	٤٠٠ ٠٠٠	قنسرين
درهم	٤٠٠ ٠٠٠	المجموع

درهم	٤٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)
	٤٢٠ ٠٠٠	دمشق
	٩٧ ٠٠٠	الاردن
و ٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت	٣١٠ ٠٠٠	فلسطين
	٢٩٢٠ ٠٠٠	مصر
سوى المتاع (لم يذكر)	٣٧٠ ٠٠٠	اليمن
	٣ ٠ ٠٠٠	الحجاز
	٤٨١٧ ٠٠٠	(المجموع)
دينار وتساي ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم		
باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في		
ذلك العصر		
	٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠	فيكون المجموع
		بالدراهم
	٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠	يضاف اليه جباية
		الاقاليم المذكورة
		أعلاه
درهم	٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠	(الجمة)

وترى من النظر في هذه القائمة ان خراج اقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم وخراج اقاليم المغرب بالدنانير (البرقة وأفريقية) وسترى نحو ذلك ايضاً في القائمتين الاخرين والسبب على ما يظهر ان مناجم الفضة كانت اكثر في اقاليم المشرق منها في المغرب وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية اقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم ومجموع خراج سائر اقاليم المغرب ٤ ٨١٧ ٠٠٠ دينار حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢ ٢٥٥ ٠٠٠ درهم وباضافتها الى جباية اقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠ ٨٥٥ ٠٠٠ درهم ورأينا في ما نقله فون كريم من قائمة ابن خلدون بلدين هما السرج والحيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ — نظنه وجدهما في نسخة فون همر . خراج الاولى ٣٠٠ ٠٠٠ درهم والثانية ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وليس هنا مكان التحقيق

عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها
فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم
ما عدا الاموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته واذا أعدت النظر فيه رأيت شيئاً
كثيراً . والعادة في تقدير الجباية ان تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد
ويضاف مبلغها الى مبالغ النفد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد
ومعظمها في الاصل من الحنطة وكما سترى في تفصيل خراج طساسيج السواد
بقائمتي قدامة وابن خرداذبه

وقد تقدم ان الجباية التي كانت ترد الى بيت المال في بغداد انما هي صوافي
ما تحصل منها في الاقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الري ونحو
ذلك من نفقات الاقاليم ولم يبق على هذا المال الا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة
ووزرائه وكتابه ورجال بطاته . وقد يرتاب الفارسي في رواية ابن خلدون لبعدها
عما هو مألوف عندنا من ميرانيات دول هذه الايام وما فيهن من يبق في صندوقها
معشار هذا المال — ولذلك فنأتي بالروايتين الاخيرين للمقابلة بينهما وبين
رواية ابن خلدون

٢ جباية الدولة العباسية

في أيام المعتصم — نقلاً عن قدامة بن جعفر

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير وقد ذكر قدامة مقدار كل
منهما مفصلاً باعتبار طساسيج السواد اي نواحيه في الشرق والغرب
طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١ ٨٠٠	٦ ٤٠٠	٤٠٠ ٠٠٠
طسوج مسكن	٣ ٠٠٠	١ ٠٠٠	١٥٠ ٠٠٠
(المجموع)	١٤ ٨٠٠	٧ ٤٠٠	٥٥٠ ٠٠٠

٥٥٠ . . .	٧٤٠٠	١٤٨٠٠	(مجموع ما قبله)
٣٠٠ . . .	١٠٠٠	٢٠٠٠	طسوج قطربل
١٠٠٠ . . .	١٠٠٠	٣٥٠٠	» بادوريا
١٥٠ . . .	١٧٠٠	١٧٠٠	نهر سير
٢٥٠ . . .	٣٣٠٠	٣٣٠٠	الرومقان
٣٥٠ . . .	٢٠٠٠	٣٠٠٠	كوفي
٢٠٠ . . .	٢٠٠٠	٢٠٠٠	نهر درقيط
١٥٠ . . .	٦٠٠٠	١٥٠٠	نهر جوبر
١٢٢ . . .	٤٠٠٠	٣٥٠٠	باروسما ونهر الملك
٢٥٠ . . .	٧٢٠٠	١٤٠٠	الزواني الثلاثة
٣٥٠ . . .	٥٠٠٠	٣٠٠٠	بابل وخطرية
٧٠ . . .	٥٠٠	٥٠٠	الفلوجة العليا
٢٨٠ . . .	٣٠٠٠	٢٠٠٠	الفلوجة السفلى
٤٥٠ . . .	٤٠٠	٣٠٠	طسوج التهرين
٤٥٠ . .	٤٠٠	٣٠٠	» عين التمر
١٥٠ . . .	١٦٠٠	١٥٠٠	» الحبية والبداءة
٢٥٠ . . .	٤٥٠٠	١٥٠٠	سورا وبرنسيما
١٥٠ . . .	٥٥٠٠	٥٠٠	البرس الاعلى والاسفل
٦٢ . . .	٢٥٠٠	٢٠٠٠	فرات بادقلي
١٤٠ . . .	١٥٠٠	١٠٠٠	طسوج السيلحين
٢٠ . . .	٥٠٠	٥٠٠	روذستان ونهر مزجرد
٣٠٠ . . .	٢٠٠٠	٢٢٠٠	تستر
٢٠٤٨٠٠	٢٠٠٠	١٢٠٠	ابغار يقطين
٢٧٠ . . .	٢٠٠٠	٣٠ . . .	كسكر
٥٦٥٨٨٠٠	٨٥٠٠٠	٨٣٢٠٠	(المجموع)
			طساسيج السواد
			في الجانب الشرقي :

٥٦٥٨٨٠٠	٨٥٠٠٠	٨٣٢٠٠	(مجموع ما قبله)
٣٠٠٠٠٠	٢٢٠٠	٢٥٠٠	طسوج بزر جسابور
١٢٠٠٠٠	٤٨٠٠	٤٨٠٠	» الرذانين
١٠٠٠٠٠	١٠٠٠	٢٠٠	» سهر بوق
٣٣٠٠٠٠	١٥٠٠	١٦٠٠	كلواذى وسهر بين
٢٤٠٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	جازر والمدينة العتيقة
٢٤٦٠٠٠	١٤٠٠	١٠٠٠	روستقباد
١٥٠٠٠٠	١٥٠٠	٢٠٠٠	سلسل ومهروذ
١٠٠٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	جلولا وجللتا
٤٠٠٠٠	١٣٠٠	١٩٠٠	الذيين
٦٠٠٠٠	١٤٠٠	١٨٠٠	الدسكرة
٣٥٠٠٠	٥٠٠	٦٠٠	البنديجين
١٢٠٠٠٠	٥١٠٠	٣٠٠٠	طسوج براز الروذ
٣٥٠٠٠٠	١٨٠٠	١٧٠٠	النهروان الاعلى
١٠٠٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠	النهروان الاوسط
٣٣٠٠٠٠	٥٠٠٠	٤٧٠٠	بادرايا وباكسايا
٤٣٠٠٠٠	٤٠٠٠	٩٠٠	كور دجلة
٥٩٠٠٠	٣١٢١	١٠٠٠	سهر الصلة
٥٣٠٠٠	١٣٠٠	١٧٠٠	النهروان الاسفل
٨٨٢١٨٠٠	١٢٣٩٢١	١١٥٦٠٠	مجموع خراج السواد

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كرخطة و ١٢٣٩٢١ كرخشعر و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على ان هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم فقد قال في ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الخطة ١٧٧٢٠٠ كرخشعر و ٩٩٧٢١ كرخا ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » (١) ولعل السبب

في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على أن الفرق على كثرته لا يعتد به في ما نحن فيه . بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير الى دراهم وقد فعل جعفر ذلك خوفاً لها باعتبار من السكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين ديناراً أو الدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار فبلغ ذلك ١٠٠ ٣٦١ ٨٥٠ درهم وقال ان صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠ ٠٠٠ درهم فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهماً على هذه الصورة

الدراهم المجموعة ورقاً	٨٠٩٥٨٠٠
قيمة الحنطة والشعير بالدرهم	١٠٠ ٣٦١ ٨٥٠
صدقات البصرة	٦٠٠٠ ٠٠٠ .
درهماً	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠

هذا هو ارتفاع السواد فلتتقدم الى ايراد جبايات سائر الاقاليم في المشرق والمغرب . وهي مع السواد : —

دزهم	ا. اقاليم الشرق
١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠	السواد
٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠	الاهواز
٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	فارس
٦ ٠٠٠ ٠٠٠	كرمان
١ ٠٠٠ ٠٠٠	مكران
١٠ ٥٠٠ ٠٠٠	اصبهان
١ ٠٠٠ ٠٠٠	سجستان
٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠	خراسان
٩ ٠٠٠ ٠٠٠	حلوان
٥ ٠٠٠ ٠٠٠	ماه الكوفة
٤ ٨٠٠ ٠٠٠	ماه البصرة
٢٢٧ ٦٥٧ ٦٥٠	(المجموع)

(مجموع ما قبله)		٢٢٧ ٦٥٧ ٦٥٠
همدان	١٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان	١٢٠٠ ٠٠٠	
مهرجان قدق	١١٠٠ ٠٠٠	
الایغارین	٣١٠٠ ٠٠٠	
قم وقاشان	٣٠٠٠ ٠٠٠	
آذربيجان	٤٥٠٠ ٠٠٠	
الري ودماوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠	
قزوین وزنجان واهر	١٨٢٨ ٠٠٠	
قومس	١١٥٠ ٠٠٠	
جرجان	٤٠٠٠ ٠٠٠	
طبرستان	٤٢٨٠ ٧٠٠	
تکريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠	
شهرزور والصامغان	٢٧٥٠ ٠٠٠	
الموصل ومايلیها	٦٣٠٠ ٠٠٠	
قردي وبندی	٣٢٠٠ ٠٠٠	
ديار ريعة	٩٦٣٥ ٠٠٠	
ارزن وميافارقين	٤٢٠٠ ٠٠٠	
طرون	١٠٠ ٠٠٠	
آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠	
ديار مضر	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	
أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠ ٠٠٠	
(المجموع)	٣١١ ٥٨١ ٣٥٠	درهماً

أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠
جند حص	٢١٨ ٠٠٠
» دمشق	١١٠ ٠٠٠
» الاردن	١٠٩ ٠٠٠
» فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠
مصر والاسكندرية	٢٥٠ ٠٠٠
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
اليامنة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠
عمان	٣٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٥١٠٢ ٠٠٠ دينار

وتحويلها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً تساوي ٧٦٧١٠ ٠٠٠ درهم وباضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة اعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ درهماً وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة ^(١)

٣ جباية الدولة العباسية

في اواسط القرن الثالث للهجرة - على رواية ابن خرداذبه
فصل ابن خرداذبه جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة وزاد على ذلك عدد
الشون والبيادر مما يطول بنا ايراده فنكتفي بذكر جملة من الخنطة والشعير والفضة
وذلك عبارة عن ٦٣ ٤٠٠ كر خنطة و ٩١ ٨٥٠ كر شعير و ٨ ٤٥٦ ٨٤٠ درهماً
نقدأ . وتحويل الخنطة والشعير الى دراهم باعتبار الكرين المقرونين ستين ديناراً
والدينار ١٥ درهماً كما تقدم بلغت قيمتها ٦٩ ٨٦٢ ٥٠٠ درهم وباضافة ذلك الى
الدراهم المجموعة نقدأ تصير الجملة ٧٨ ٣١٩ ٣٤٠ درهماً

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الاقاليم في الدولة الطاهرية باعتبار
(١) وقد رأينا اختلافاً في قائمة قدامة بين التفصيل والاجمال لعله تطرق اليها من النسخ
فحصناه بقدر الامكان

ما وظف عليها سنة ٢١٢ هـ ومقدار ذلك جملة ٨٤٦٠٠٠ ٤٤ درهم و١٣ دابة للركوب و ٢٠٠٠ شاة من الغنم و ٢٠٠٠ راس من السبي الغزية ما قيمته ٦٠٠٠٠٠ درهم . ومن الكرايدس الكندجية ١١٨٧ ثوباً ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين . وكانت خراسان يومئذ تشمل نحواً من خمسين عملاً في جملتها الري وقومس وجرجان وكرمان وسجستان ونيسابور وطخارستان والطالقان واعمال ما وراء النهر وفيها بخارى والسغد وغيرها . وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة . وقد اقتصرنا على اجمال ذلك خوف التطويل ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد واعمال خراسان فليراجعها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . ولنتقدم الى اتمام قائمته عن الاعمال الاخرى مع الاجمال الذي ذكرناه

اقاليم المشرق	درهم
السواد	٧٨ ٣١٩ ٣٤٠
خراسان وتوابعها	٤٤ ٨٤٦ ٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠
ماسبدان ومهرجان فذق	٣٥٠٠ ٠٠٠
قم	٢ ٠٠٠ ٠٠٠
الاهواز	٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٣٣ ٠٠٠ ٠٠٠
قزوين	١ ٢٠٠ ٠٠٠
ماه الكوفة	٣ ٨٠٠ ٠٠٠
اصبهان	٧ ٠٠٠ ٠٠٠
ديار مضر	٥ ٦٠٠ ٠٠٠
الموصل	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
ديار ربيعة	٧ ٧٠٠ ٠٠٠
ارمينية	٤ ٠٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٢٢٧ ٧١٥ ٣٤٠ درهماً

اقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٤٠٠ ٠٠٠
جند حمص	٣٤٠ ٠٠٠
» دمشق	٤٠٠ ٠٠٠
» الاردن	٣٥٠ ٠٠٠
» فلسطين	٥٠٠ ٠٠٠
مصر	٢ ١٨٠ ٠٠٠
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠
(المجموع)	٤ ٧٧٠ ٠٠٠ دينار

وبتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٧١ ٥٥٠ ٠٠٠ درهم تضاف الى مجموع جباية اقاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة

درهم	
جباية اقاليم المشرق	٢٢٧٧١٥ ٣٤٠
» » المغرب	٧١ ٥٥٠ ٠٠٠
الجملة	٢٩٩ ٢٦٥ ٣٤٠

مجل جباية الدولة العباسية

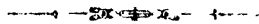
وخلاصة ما تقدم ان ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المأمون ثم أخذ في التناقص بعده ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة لاسباب سياي بيانها . واما قبل ذلك فان ارتفاع هذه الدولة كان عظيماً جداً كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها وهاك فذلكتها :

درهم

جباية الدولة العباسية في أيام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ هـ	٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠
» » » » » المعتصم أو بعده الى سنة ٢٢٥	٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠

٣٤٠ ٢٦٥ ٢٩٩ جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث^(١)

فترى من مقابلة هذه الأرقام أن الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الأول من القرن الثالث وخصوصاً إذا اعتبرت ما أغفلناه من قائمة ابن خلدون من الأموال والامته والحصولات وهي من جملة الخراج . فمعدل الوارد إلى بيت المال في العام نحو ٣٦٠ مليون درهم وهي صوافي جباية الأعمال كما قدمنا مما لم نسمع بمثله في الدول قديماً ولا حديثاً — إلا إذا اعتبرنا ما أورده بعضهم اجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس . فقد قال جبن مؤرخ الدولة الرومانية أن جباية هذه الدولة في إبان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم منها ١٣٥ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى)^(٢) وذكر ابن خرداذبه أن جباية مملكة الفرس في أيام كسرى بروز بلغت ٤٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مثقال أو نحو ٧٢٠ مليون درهم . فإذا سلمنا بصحة هذه الأرقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الاتفاق عندهم إذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . أما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جداً . فالدولة العثمانية باغت معظم سعتها في أيام السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة ولم يزد ارتفاع جبايتها في أيامه على ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ دوكات^(٣) أو نحو ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك . فإن ذلك من جباية الدولة العباسية فلها يزيد على أضعافه . وقس على ذلك دول هذه الأيام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي ولنتقدم إلى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها هذه الأموال



(١) لا ينبغي على المتأمل أننا عينا هذه اللازمة بالتقريب إذ قد يرد في فائدة ابن خرداذبه مثلاً خراج إقليم كما وظف عليه في عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة والمكس وانما اعتبرنا في معيها الاغلبية

Gibbon's Roman Empire I. 110

(٢)

Porter's Coust. Hist. of Turkey, Ms.

(٣)

نفقات الدولة العباسية

لم نر في ما كتبه المؤرخون القدماء في العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ولا ندرى اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً أو ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان . على ان مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامي أو ما هو في معناه كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم أو نظام الحياة الاجتماعية غير ما جاء عرضاً في أثناء ذكر الوقائع الحربية أو وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون ففدأورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بذخها في ابائها . واما قدامة وابن خرداذبه ففد ذكر مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج ايضاً بعض اصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكنهم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن الشؤون التي تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدره

على اننا بالقياس على ما عرفناه من أحوال ذلك التمدن نرجح ان المال المشار اليه كالوضع في بيت المال بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب في دواوين الحكومة في بغداد والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كان عملهم في الخارج مثل عمال البريد ^(١) وغيرهم . وما بقي من أموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة ^(٢)

أما مقدار ما كان ينفق على الجند بالدواوين وغيرهم فما لا يمكن القطع فيه لانه يختلف باختلاف العصور وأحوال الخلفاء ولم نقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الاول ولا في غيره

. على أننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائي على نفسه ان يقدمه من ضمانه الى بيت المال — وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩ هـ) ^(٣) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين

(١) ابن خرداذبه ١٥٣ (٢) الماوردي ١٧٩

Einnahmebudget des Abbasiden Reiches

(٣)

تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك ٢٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :

نفقات الدولة العباسية

في أيام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار في اليوم

ارزاق اصحاب النبوة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنائين والبصريين واصحاب المصاف بياب العامة وغيرهم والسودان واكثر ممالك الناصر	١٠٠٠
ارزاق الغلمان الذين اعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة	١٠٠٠
ارزاق الفرسان من الاحرار المميزين	١٥٠٠
ارزاق المختارين وهم جند منتخب من كل قيادة وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة	٦٠٠
ارزاق الفرسان الممبئين في أيام الناصر	٥٠٠
» سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والفراء واصحاب الاخبار والمؤذنين والمنجمين والفنجايمين واصحاب الاعلام والبوقيين والمضحكين والطبالين وغيرهم	١١٠
المرتقة برسم الشرطة في مدينة السلام وغيرها	٥٠
امان ازال المالك وغيرهم	٣٠٠
نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمحاز وازال الحرم والحشم ومحاز السودان	٣٣٣ ١/٢
نمن وظائف الشراب للخاصة والعامة وآلاته ونفقات خزائن الكسوة والحلج والطيب وحوائج الوضوء وخزائن السلاح والفرش الخ	١٠٠
(المجموع)	٥٤٩٣ ١/٢

(مجموع ما قبله)	٥٤٩٣ $\frac{1}{3}$
ارزاق السقاين بالقرب في القصر والخزائن والخنازير والدور والحجر والخدم الخ	٤
ارزاق الخاصة ومن يجري مجراه من الغلمان والمماليك دون الاكابر الاحرار ومن أضيف اليهم من الحشم القدماء	١٦٧
ارزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن السكوة والصناع من الصاغة والخياطين والعقادين والاساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين والوراقين والطارين والمشهرين والتجارين والخراطين والاسفاطين وغيرهم الخ	١٠٠
ارزاق الحرم	١٠٠
من علوفة الكراع في الاصطبلات الخمسة	٤٠٠
ما يصرف في من الكراع والابل والحيل الخ	٦٦ $\frac{2}{3}$
ارزاق المطبخين	٣٠
» الفراشين والمحليين وخزان الفرش والحمالين	٣٠
» أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد	٥
» الجلساء واكابر الملهمين ومن يجري مجراه	٤٤
» جماعة من المتطبيين وتلامذتهم الخ	٢٣ $\frac{1}{3}$
» اصحاب الصيد من البزازياريين والفهادين والسكلازيريين وغيرهم	٧٠
» الملاحين في الطيارات والشذات والحراقات وغيرهم من السفن	١٦ $\frac{2}{3}$
من النفط والمشافة للنفاطات والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها	٤
إصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء	١٥
جاري أولاد المتوكل	٣٣ $\frac{1}{3}$
» » الوائق	١٦ $\frac{2}{3}$
(المجموع)	٦٦١٩

(مجموع ما قبله)	٦٦١٩
جاري اولاد الناصر	١٦ ٢
ارزاق مشائخ بني هاشم واصحاب المراتب والخطباء في المساجد	٢٠
ازراق جمهور بني هاشم من العباسيين والطالبين	٣٣ ١
جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض	٣٣ ١
ارزاق اكابر الكتاب واصحاب الدواوين والخزان والبوابين والمديرين والاعوان وسائر من في الدواوين وعن الصحف والقراطيس والسكاغد - سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال فلهم يأخذون ارزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم الخليلين بدواهم	١٥٦ ٢
جاري اسحق بن ابراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب والد ابي عمر وأولادها وعشرة نفر من الفقهاء	١٦ ٢
جاري المؤذنين في المسجدين والمكبرين والقوام والائمة وعن الزيت للمصاييح والحصر والبواري والماء وعن الستار للصيف والجلباب والخزف والعمارة في شهر رمضان	٣ ١
نفقات السجون وعن أقوات الحبسين	٥٠
نفقات الجسرين وعن ما يبدل من سقفهما وارزاق الجسارين	١٠
نفقات البيمارستان الصاعدي ولم يكن يومئذ غيره وارزاق المتطيين والمأانين والكحاليين ومن يخدم المغلويين ثلثي عقولهم. والبوابين والجنازين وغيرهم وأمان الطعام والادوية والاشربة	١٥
(الجملة)	٦٩٧٤

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار وذلك نفقات الدولة العباسية في اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ومجموع ذلك في السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠ ٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها في أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك -

وهي في اعتقادنا يجب أن تكون أقل من ذلك بالنظر الى تكثر الغلمان والماليك في أواخر القرن الثالث عما كان في أوائله - فاذا فرضنا النفقات واحدة في أيام المأمون والمعتضد وحولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً على الأكثر بلغ ذلك ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم فاذا اسقطناها من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم كان الباقي ٣١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم او قل ٣٠٠ مليون فقط. فالدولة التي يبقى في بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة لانتا لم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقها نصف هذا المال او ربعه او عشره الا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس

وزد على ذلك ان هذه النفقات جزئاً صغير من مال الجباية لانها عبارة من خراج ماضنه الطائي من البلاد وهي سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج وهر بوق والذيين وكلوادي ونهر بين والذنانين وطريق خراسان وكلها من العراق وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة صفحة ٥٤ - فلا مشاحة في ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض اعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م)

ولكي يتجلى لنا مقدار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث يجب ان نحولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم ان الدينار كان صرفه في النصف الاول من القرن الثالث ١٥ درهماً فقدا هذه الثروة بالدينار ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ويقدر من الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه فيكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين جنيه

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات أو ما يستخدم به من الرجال فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها أردب الحنطة بخمسين قرشاً يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الاردب بمئة قرش

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعدُّ عندنا في أوائل القرن الماضي من الاغنياء لان حاجيات الحياة كانت رخيصة جداً ثم أخذت آلتها تصاعد بتكاثر الناس وتفننهم في طرق المعاش ولاسباب أخرى حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس في شهر واحد .

وقد لاحظنا فرقاً واضحاً في سعر الذهب في الأعوام الأخيرة بمصر يجدر بالحكومة ان تنبه له وتراعيه لئلا يلقاه برواتب مستخدميهها - وذلك انه بالنظر الى تصاعد اثمان المآكل وأجور المساكن زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة فالموظف الذي كان ينفق على عائلته ألف قرش في الشهر مثلاً أصبح لا يكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحداً ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب - فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي ان تزداد رواتبهم كلما غلا السعر

فللقوف على حقيقة روة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام يجب ان نقابل بين اثمان المحصولات يومئذ واثمنها اليوم وأجور العمال في العصرين . وقد رأيت في ما تقدم ان ثمن الكرم من الحنطة والشعير في أيام قدامة^(١) ثلاثون ديناراً والكر العراقي أربعون أردباً^(٢) والاردب من الحنطة والشعير اليوم يفدر بنحو جنيه فالاربعون أردباً بأربعين جنيهاً أو ثمانين ديناراً أي نحو ثلاثة امثاله في تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء في أيام المنصور قيراط فضة والروزكاري (الفاعل) حبتين^(٣) والفيراط في العراق $\frac{1}{2}$ من الدينار^(٤) والحبة $\frac{1}{4}$ منه فكان أجرة الاستاذ بنفود هذه الايام $\frac{2}{3}$ الدرهم أي نحو ثلاثة قروش وأجرة الفاعل قرش وذلك نحو ثلث أجرته اليوم أو ربعها . فالنفود في أيام العباسيين كانت تساوي ثلاثة اضعاف ما تساويه اليوم على الأقل . فالباقى في بيت مال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنفود هذه الايام وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده يستخدمها في الجهات التي يريدونها أو يترأى له فيها مصلحة للدولة - فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلاني اعطى شاعراً مئة ألف درهم او عشرة آلاف دينار . ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمئة ألف جنيه والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه او مليون - وأما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط (٣) ابن الانبر ٢٧٢ ج ٥

(٤) محيط المحيط

وما في دول هذه الايام ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد الا نادراً مع ان مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في ايام العباسيين . خذ انكلترا مثلاً وهي من أعظم الدول وأقربهن إلينا الآن فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه منها : -

جنيه	
٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي
٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها
١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	ضريبة الايراد
١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	طوابع البريد
٣ ٠٠٠ ٠٠٠	من التلغراف
٨ ٥٠٠ ٠٠٠	طوابع العقود ونحوها
٩٧ ٠٠٠ ٠٠٠	المجموع

فترى من هذا المجموع ان نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية ويغلب في نفقات الدول الحديثة ان تساوي دخلها او يبقى لها باق قليل جداً يندر ان يزيد على مليون جنيه وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها كما حدث لانكلترا في الاعوام الاخيرة أثناء حربها في جنوبي افريقيا حتى اضطرت الى الاستفراض كما هو مشهور - فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ ولا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول : -

اسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقي من اسقاط الخرج من الدخل . فلنبحث في أبواب الدخل وهي مصادر الجباية وفي أبواب الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ونبين أسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية في أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح النبي من نصارى جزيرة العرب ويهودها وتوفي النبي ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على نحو ذلك في أيام بني أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف في تحصيلها كما تقدم . ومما وضعوه في أيامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان في اثناء ولايته ارمينيا سنة ٧٢ هـ^(١) ونظنهم وضعوا ايضاً اعشار السفن وهي العشور التي تؤخذ من المراكب المارة في البحار . واخماس المعادن التي تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية ترتقي وتنفرح حتى أصبحت في أيام العباسيين عديدة ترجع الى احد عشر وهي :

- | | |
|-------------------------|-----------------------------|
| (١) الصدقة او الزكاة | (٧) اخماس المعادن |
| (٢) الجزية | (٨) المراصد (السكارك) |
| (٣) الخراج | (٩) غلة دار الضرب |
| (٤) المكوس (الفردة) | (١٠) المستغلات |
| (٥) الملاحات والاسماك | (١١) ضرائب الصناعة وغيرها |
| (٦) اعشار السفن | |

على ان العمدة في زيادة الثروة انما هي على الخراج حتى انهم سمو مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل . فاذا قلوا خراج فارس مقداره كذا وكذا أرادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب . وعليه فلنبحث اولاً في الخراج وسبب كثرته في العصر العباسي الاول ثم نلم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

اسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ولكثرته في الدولة العباسية اسباب أهمها اربعة وهي :

(١) سعة المملكة العباسية

لما كان المعول في مقدار الجباية على الخراج خباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة ارضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية في العصر العباسي الاول كانت عظيمة الاتساع جداً بل هي اوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا اسبانيا منها) الا مملكة الاسكندر فربما قاربتها

أما مساحة المملكة العباسية فتقديرها انما يعرف من مساحات الممالك التي قامت مقامها اليوم وهي :

مساحة المملكة العباسية

في القرن الثالث للهجرة

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها (سنة ١٩٠٣)	مساحتها بالاميال
ايران كلها	شاه العجم	٦٢٨ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٢١٥ ٠٠٠
بلوچستان	انكلترا	١٣٠ ٠٠٠
السند	انكلترا	٤٨ ٠٠٠
(المجموع)		١٠٢١ ٠٠٠

١٠٢١ ٠٠٠	(مجموع ما قبله)	
٢٥٧ ٠٠٠	روسيا	تركستان روسيا فقط
١٥٣ ٠٠	روسيا	قوقاسيا (تفليس)
٧٢ ٥٠٠	تركيا	ارمينية وكرديستان
١٠٠ ٢٠٥	تركيا	{ العراق الجزيرة
١٠٩ ٥٠٩	تركيا	{ سوريا فلسطين
٢٠٠ ٠٠٠	تركيا	جزيرة العرب (منها)
٤٠٠ ٠٠٠	تركيا	القطر المصري
٣٠٠ ٠٠٠	السودان	النوبة وبعض السودان
٣٩٨ ٠٠٠	تركيا	طرابلس الغرب
١٨٤ ٥٠٠	فرنسا	جزائر الغرب
٥١ ٠٠٠	فرنسا	تونس
٢١٩ ٠٠٠	مستقلة	مراكش

(المجموع) ٣٣٢٨ ٠١٤ ميلاً مربعاً

فبمجموع مساحة هذه المملكة ٣٣٢٨ ٠١٤ ميلاً مربعاً وذلك نحو مساحة اوربا كلها . فخراج ممالك اوربا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام أمرها وانما عتمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والكمارك كما تقدم

على ان سعة المملكة العباسية لا تكفي وحدها لتعيل ثروتها لان المملكة العثمانية بلغت من السعة في أيام السلطان سليمان القانوني ما يقرب من سعة مملكة بني العباس ومع ذلك فان الجباية في ايامه لم تزد على ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك كما رأيت وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس في الزراعة وثقل الضرائب وخصب الارضين وغير ذلك

(٢) اشتغال الناس في الزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الامويين ان عمالهم كانوا يسيئون اصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشأغل الناس عن الزرع فاهملت الارض وزادها اهمالاً انتشاب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكابة فيها ولغة انتفاعهم بها فاصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال^(١) وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ونشروا لواء العدل وأحسنوا معاملة أهل الذمة والموالي وأنموهم على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره وكان للخلفاء الاولين من بني العباس عناية كبرى في تأييد الامن وتعمير البلاد ورعاية أهلها من الذميين والموالي . فالمنصور كان يتبع العمال الظالم ويأخذ أموالهم ويستبدلهم بسواهم ويضع ما يأخذ من أموالهم في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم^(٢) وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن أسعار الغلة لئلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ويحث عن كل ما يقضي به القضاة أو يعمل به الولاة وعما يرد الى بيت المال وعن كل حدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب واذا شك في شيء مما قضى به الفاضي سأله ووبخه^(٣) . وبعد ان كان الموالي كالارقاء في أيام بني أمية أصبحوا في أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة يوصي الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان فقد أوصى المنصور ابنه المهدي قائلاً « انظر الى مواليك فاحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فلهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك وأوصيك باهل خراسان خيراً فلهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك »^(٤) وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل بهاره في النظر في الخراج والنفقات ومصالحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهديمهم . ومن وصاياه لابنه المذكور « يا بني لا يصلح السلطان الا بالتقوى ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وأدلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين وتقواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدي

(١) الفخري ١٥٧ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) الطبري ٤٣٥ ج ٣

(٤) ابن الاثير ٨ ج ٦

يجلس للمظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . وأخبار الرشيد في العدل أكثر من أن تحصى وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك أنه كان قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عينا يأتيه بما يقول فأرأه يوماً قد كتب على الحائط

اما والله ان الظلم لؤم وما زال المسمي هو الظلوم

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فاخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار . وله مع أبي العتاهية حديث أغرب من هذا وهو ان الرشيد أولم وليمة ووضع طعاماً وطلب الى أبي العتاهية أن يصف ما هم فيه من النعم فقال :

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة الفصور

يسعى عليك بما اشتبهت لدى الرواح وفي البكور

فاذا النفوس تقعقت في ظل حشرة الصدور

فهناك تعلم موقناً ما كنت الا في غرور

فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى « بعث اليك امير المؤمنين اتسره فخرته » فقال الرشيد « دعه رأنا في عمى فكره ان يزيدنا »^(١)

وأمثله ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف لا يستتب الامن في ظل هؤلاء ولماذا لا تخلص الزراعة وتتسع التجارة في حمايتهم وكيف لا يتقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك في خدمتهم . وكيف لا تعمّر البلاد في ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران الا في ظله ولا حياة الا به . ولا يتم عز للسلطان الا بالعدل اذ لا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل^(٢) والعدل أساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ان الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير ما تركه الامويون خراباً من الضياع والمزارع بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها^(٣) فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في احتقار الأنهر وانشاء السدود وغيرها من مسهلات الري

(١) ابن الاثير ٨٨ ج ٦ (٢) ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ (٣) الفخري ١٥٧

(السواد) فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد (او العراق) فانه من أخصب بقاع الارض واذا راجعت ما ذكرناه من حياته رأيت خراجها ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الحياة من أيام الفرس فقد جباه قباز بن فيروز ١٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم^(١) وجاه كسرى بن قباز ٢٨٧ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم^(٢) وجاه غيرهم من ملوك الفرس ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم سوى ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ من الواضع لموائد الاكاسرة^(٣) - كانوا يحيون ذلك على غير ظلم ولا عسف ولكنهم كانوا يعتنون بالري فيحفرون الترع ويننون السدود والجسور . ووادي الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادي النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجران من الشمال الى الجنوب وفيضان في الشتاء والنيل يجري من الجنوب الى الشمال وفيفيض في الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى اصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطفيان الماء

وكان ماء دجلة يجري قديماً غير مجراه اليوم . اي انه كان يجري مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فخرجرايا فخابول الى ماذرايا ومن هناك ينعطف غرباً حتى يسير سيراً عمودياً الى قم الصلح فواسط حتى يصب في البطائح حيث يلتقي بالفرات ومنها الى دجلة العواء بقرب البصرة ومنها الى خليج فارس قرب عبادان . ثم جرى بعد ذلك من ماذرايا شرقاً ثم انعطف جنوباً شرقياً على ما هو عليه اليوم . وكان الفرات فرعين احدهما بجانب السكوفة والاخر شرقيه وكلاهما يصبان في البطائح

(البطائح) مستنقعات او ارض كان يغمرها الماء في أسفل العراق بين البصرة والسكوفة . وسببها ان دجلة انبت في أيام قباز فيروز بثقاً كبيراً بقرب كسكر فانغل أمره حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من ارضين عامرة كانت تليه وتقرب منه . فلما ولي أبو شروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الارضين الى العمارة ثم خلفه ابنه برويز وفي ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم ير مثلها وانبتت بشوق كبار فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكرأ في يوم واحد فلم يقدر على رد

(١) ابن خرداذبة ١٤ (٢) الماوردي ١٦٥ (٣) ابن الفقيه ٢٠٥

الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب فكانت البشوق تنفجر ولا يلتفت اليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها فعظم ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت ^(١) ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل فيها ٥٠٠٠٠٠٠ درهم في خلافة معاوية بن أبي سفيان ^(٢) لكنهم قلما عنوا في اصلاحها والاتقاء بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الري . وفي ايامه انبثقت بشوق أخرى وكبرت البطائح فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك بنحبرها وانه قدر على سدها للتنفقة ٣٠٠٠٠٠٠ درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة ابن عبد الملك « انا أنفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارضين المنخفضة التي يبق فيها الماء بعد انفاق المال على أيدي هاتك » فرضي الوليد بذلك ففصلت للوليد ارضون وطاسيسح كثيرة فحفر نهرين سماهما السييين وتآلف الاكرة والمزارعين وعمر تلك الارضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم هشام بعده مالا كثيراً ثم جرى الناس على ذلك الى اواخر بني امية ^(٣)

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الأنهر وانشاء الجسور حتى تشبكت الترع في السواد وأصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز تخترق اليه نهـار من الفرات ^(٤) وقس على ذلك سائر انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا في أيام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك

« خراسان » ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان فقد كانت ارض خصبة مع سعتها ورغبة أهلها في نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم اذا أضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بني العباس في إبان دولتهم مبذولة في هذين البلدين وفي الحجاز . أما العراق فللمال واما خراسان فللمال والرجال . وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وتثبيت البيعة . وعمران خراسان في ذلك

(١) تدانة ٢٤٠ (٢) الماوردي ١٧١ (٣) قدامة ٢٤١

(٤) الاصلطخري ٨٣

الوقت مما لا ريب فيه - قال المقدسي في عرض كلامه عن مدائن العراق وقد أطنب في عمراتها « فهذه مدن بغداد وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن » ^(١) وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها ^(٢) ويدخل في ولاية خراسان بلاد ما وراء النهر وهي كثيرة الخصب جداً - قال ابن حوقل « ولم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارا لانك اذا علوت قهندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراص المطية أو كالكواكب العلوية يابضاً ونوراً من أراضي ضياع مفومة بالاستواء كوجه المرأة » قال « والمشار اليه من منزهات الارض سفد سمرقند ونهر الالبّة وغوطة دمشق » ^(٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية في ذلك العصر الزاهر (راجع خريطة المملكة الاسلامية الملحقة بهذا الكتاب) « مصر » ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الامن واذا أمن الناس على ارواحهم وحقوقهم فترغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها . اعتبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامي نحو ٢٠٠٠٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ويستبعد أهل هذا الزمان امكانه . واكثر منهم استغراباً أهل أوائل القرن الماضي . فقد ذكر الدكتور كلوت بك تقدير العرب لسكان وادي النيل انه عشرون مليوناً وععب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتمل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » ^(٤) وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ولا يزال آخذاً في الزيادة

أما كلوت بك فانه أعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣٠٠٠٠٠٠ نفس فقط على انه لما ذكر هذا الاحصاء اظهر إعجابه بزيادة سكان وادي النيل في ظل محمد علي باشا عما كانوا عليه في أيام المماليك لما كان من عدالته ورغبته في احياء البلاد أما في أيام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢٠٠٠٠٠٠

(١) المقدسي ١٢٢ (٢) البيهقي ٥٥٥ ج ٢ (٣) حوقل ٣٤٥

(٤) Aperçu gen. sur l'Egypte I. 165

ولا نطن الارض المزروعة فيها كانت تزيد مساحتها على مليون فدان وبعض المليون بالنظر الى ما كان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما ظلمهم العدل في عهد محمد علي وخلفائه تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة حتى بلغت الآن ٥٥٠٠٠٠٠ فدان (سنة ١٩٠٣) وسكانها نحو عشرة ملايين وهي آخذة في الزيادة . وبالطبع ان مقدار الحياة يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان وهما لا يكونان الا في ظل العدل الصحيح — اعتبر ذلك في جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى انها تمشت على هذه القاعدة تماماً :

كانت جباية مصر في زمن الراشدين أعلى ما باغت اليه في الاسلام . ففدجباها عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار ومساحة الارض المزروعة على تقديرهم ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان . وجباها عبدالله بن سعد في أيام عثمان ١٤٠٠٠٠٠٠ دينار ولكنه استعمل العنف في تحصيلها^(١) . فلما كانت أيام بني أمية وكان ما كان من ظلم العبال وعنفهم انحطت الحياة ولم تزد في أيامهم على ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار الا في أيام ابن الجبجباب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار لانه بذل الجهد في تحصيلها وتعديلها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الحياة كثيراً لبعده مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على ما كانت عليه في أيام بني أمية . ولما أخذت الدولة العباسية في التدهور زاد انحطاط الحياة في مصر حتى اصبح في بعض سني القرن الثالث للهجرة ٨٠٠٠٠٠٠ دينار فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها في أيامه ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار مع رخاء الاسعار وكان المصح كل عشرة أرادب بدينار^(٢) فلما انفضت دولة بني طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر العائد ٧٠٠٠٠٠٠٠ دينار^(٣) ولكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الحياة فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه

وأخر عهدنا بانحطاطها على أيام الامراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشدد في تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٢٩٨ م) : —

(١) ابن حوقل ٨٨ (٢) المقرئ ٩٩ ج ١ (٣) ابن حوقل ١٠٨

الوارد

ميدة أو نصف	
٨٠ ٤٦٠ ٠٦٨	مال الميري على الفري والاقواف
١٠ ٨٧٠ ٧٧٣	» » » الايراد
٢٢ ٨١١ ٨٠٥	» » » الصنائع والمأكولات
٢٥ ٠٩ ٠٨١	» » » على الرؤوس
١١٦ ٦٥١ ٧٢٧	

الخارج

ميدة أو نصف	
٢ ٩٣٩ ٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩ ٧٧٢ ٦٥٧	» » الجند
٢ ٦٠٣ ٥٨٥	» » مختلفة
٨ ٤٣٨ ٩٥٤	» » العلماء والتعليم ووقفات
١٣ ٨٩٢ ١٣٩	» » رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢ ٠٧١ ٦٥٤	» » الحج
٩٩ ٨٦٨ ٢٧٦	مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد اعلاه
١٦ ٧٨٣ ٤٥١	الباقى

والباقى المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة .
ولما تمرد حكام مصر حاول بعضهم اسقاطها والبعض الآخر تخفيضها ثم انتهت
أخيراً أن يقتطعوا منها ٩ ٢٨٣ ٤٥١ نصفاً في مقابل نفقات فوق العادة على هذه
الصورة :

ميدة او نصف	
٣٠٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١٥٠٠ ٠٠٠	ترميم قلاع سائر القطر
٢٠٠٠ ٠٠٠	اثمان سكر وخلافه
٢ ٧٨٣ ٤٥١	نفقات اخرى يأمر بها شيخ البلد
٩ ٢٨٣ ٤٥١	الجملة

فاذا اسقط هذا المال من الحزنة المذكورة كان الباقي ٧٥٠٠ ٠٠٠ ميدة (١)

وخلاصة ما يهمننا في هذا المقام ان مجموع الابرار في عصر المماليك بلغ ١١٦ ٦٥١ ٧٢٧ نصفاً او ميدة والميدة في تلك الايام كانت تساوي اربعة سنتيمات تقريباً (٢) او كل ٢٨ نصفاً تساوي فرنكاً واحداً . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالفرنكات نحو ٤ ١٥٠ ٠٠٠ فرنك . غير ان قيمة نفود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها اليوم وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات فقد كان ثمن الرطل من اللحم الضاني سبعة انصاف وثمان أردب الفصح ٢٤٠ نصفاً (٣) فاذا قسمنا ذلك بأثمانها في هذه الايام رأينا الميدة أو النصف يقابل نصف الفرش المصري تقريباً . فتكون جباية مصر في عصر المماليك تساوي نحو ٥٨ ٠٠٠ ٠٠٠ قرش مصري او ٥٨٠ ٠٠٠ جنيه . فلما تولتها العائلة الخديوية وعملت على عمرانها أخذت جبايتها في الزيادة حتى بلغت في العام الماضي ١١ ٨٥٠ ٠٠٠ جنيه أي اكثر من عشرين ضعف جبايتها في ايام المماليك والتربة واحدة والنيل واحد والفصول على حالها — وانما هي العدالة يكثر في ظاهرها الناس وتخصب الارض وتتوفر الثروة — سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً

(٣) ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الارض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف

(١) Descrip. d'Egypte XII. (٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

البلاد فبعضها بالمساحة أي ان يضربوا على المساحة المعلومة من الارض مالا معينا في العام سواء زرعت تلك الارض ام لم تزرع . والبعض الآخر بالمقاسمة أي ان يكون الخراج جزءا من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها . فلم يزرع لا يطالب بالخراج وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات سيأتي بيانا . ولما كان السواد (او العراق) أهم اقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به « السواد » كان السواد لما فتحه المسلمون يحجب بالمساحة باعتبار « الجريب » وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٣٦٠٠ ذراع مربع فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً ودرهماً ^(١) . والقفيز عشر الجريب ويعبرون عن القفيز وزناً بثمانية أوطال ويمدرون قيمته ثلاثة دراهم ^(٢) وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة في الجاهلية ومن ذلك قول زهير ابن ابي سلمى

نقل لكم ما لا تغل لاهلها قري بالعراق من قفيز ودرهم

فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهماً يؤخذ عليه اربعة دراهم اي نحو ١٣ ١/٣ في المئة وهو خراج خفيف جداً - لولا ان كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع أصحابها الخراج عنها

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب وعلم بما كان الفرس يجيونه أمر بمساحته فمسخوه له وعدلوه باعتبار نوع الفرس . وخلاصة ذلك انه ابقى الخراج على الحنطة كما كان في أيام الفرس اي على الجريب قفيز ودرهم او اربعة دراهم . وجعل على الجريب من السكر عشرة دراهم ومن النخيل ثمانية دراهم ومن الفص ستة دراهم والرطبة خمسة دراهم وعلى الشعير درهين وعلى الرأس من الناس ١٢ درهماً او ٢٤ او ٤٨ درهماً واخرج من ذلك النساء والصبيان ^(٣) وكان العمال يجيئون السواد لعمر المذكور ١٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم باعتبار انه ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ جريب . وظل السواد في أيام الراشدين عامراً واكثره مزروع . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان واشتغل المسلمون بالحروب الى أيام بني امية واستصفاء الاموال في أيام معاوية والحجاج وغيرها اشتغل اهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك

(١) المارودي ١٦٥ (٢) المارودي ١٤١ (٣) كتاب الخراج لابن يوسف ٢٠

فان الحجاج جباه نحو جبايته في أيام عمر ولا بد انه استخدم العسف والشدة في ذلك لان صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن ارض لم يزرعها فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام فيتراكم ذلك على اصحاب الارضين وهم يزدادون ضكاً فخربت البلاد وهجرها اهلها وجري على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر اصحاب الارضين الى اللجوء كما سيأتي . ناهيك بما كان في نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بني امية لتعصّبهم للعرب واحتقارهم غير العرب ولو كانوا مسلمين

فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ وجهوا عنايتهم الى السواد بنوع خاص واول من فعل ذلك منهم المنصور فانه نظر في السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للأسباب التي قدمناها فرأى استبقاء الخراج عليه بالمساحة غلى تلك الصورة ظاهراً فجعل خراج الحنطة والشعير مفاصلة (وهما اكثر غلات العراق) اي ان يؤخذ خراج الارض من غلتها اذا زرعت فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شيء وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة ^(١) ولا ندرى كم جعل حصة بيت المال من المفاصلة المذكورة ولكننا نعلم ان ابنه المهدي (من سنة ١٥٦ - ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المفاصلة بالنصف في الارض التي تسقى سيجاً اي بدون تعب وبالثلث في الارض التي تسقى بالدوالي وبالربع في الارض التي تسقى بالدوالي وأبقى خراج النخل والسكر والشجر على المساحة وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض - اشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار ^(٢) فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً لان أكثره يسقى سيجاً وهو خراج ثقيل ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة

ويظهر ان الهادي أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها اي ستة اعشارها وظل ذلك شأها الى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط ^(٣) وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجاً الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين ^(٤) فكان انه اسقط عشرين في المئة

(١) الماوردي ٧٧ و ١٦٨ (٢) الماوردي ١٦٨ والفخري ١٦٤ والبلاذري ٢٩١

(٣) الطبري ٦٠٧ ج ٣ وابن الاثير ٤٨ ج ٦ (٤) الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦

والطبري ١٠٣٩ ج ٣

من مقدار الخراج . وخفض خراج بعض البلاد الاخرى غير السواد كالري فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة وامر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ اهل قم ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخراج وكان مقداره ٢٠٠٠٠٠٠ درهم لخارجهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧٠٠٠٠٠٠ درهم تأدياً لهم (١)

فترى مما تقدم ان خراج السواد كان ثقيلاً بالنظر الى ما كان عليه في أيام الراشدين على المساحة . لانهم كانوا يأخذون على الجريب اربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ او نسبة ١٠٠ : $\frac{1}{3}$ ٣٣٣ فإذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان $\frac{1}{3}$ ١٣ وهو خراج زهيد بالنظر الى الارض التي تزرع وأما بالنظر الى ما يبقى بوراً فهو كثير وربما كان المعدل في الحالين واحداً - بذلك على ذلك ان الفرق في ارتفاع الخراج بين المساحة في أيام الراشدين والمقاسمة في إبان كثرتها لا يعتد به . أما بالنظر الى هذه الايام (سنة ١٩٠٣ م) فان ضرائب السواد ما زالت حتى في أيام المأمون ثغيلة اذ ليس في العراق الان ارض يزيد خراجها على خمس غلتها وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفي لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة . لانهم مسحوا الارضين وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتها باختلاف المغروسات فالارض التي غلتها كيل زيتون او حمل ورق توت او بذار مدقح أو ما تساوي قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ في المئة فقط

(مصر) وبلي العراق بالحب مصر وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبة والقصبة خمسة اذرع بذراع النجار وستة اذرع وثلاثا ذراع بذراع القماش (٢) وفي تعريف الحكومة المصرية اليوم الفدان $\frac{1}{3}$ ٣٣٣ قصبة والقصبة ٥٥ ، ٣ من المتر المربع وتحويه الى أمتار مربعة يكون الفدان نحو ٤٢٠٠ متر مربع وقد زيد أو نقص قليلاً (٣)

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون في عهد بني أمية من العسف وزيادة

(١) الطبري ١٠٩٣ ج ٣ (٢) المقرئ ١٠٣ ج ١ (٣) القوانين المقاربة ١٦٦

الضرائب فدخلت الدولة العباسية ومصر اكثرها خراب لما كان يسومهم عمال بني امية من زيادة الخراج وأشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب في ايام هشام بن عبد الملك فانه زاد على البسط قيراطاً في كل دينار كما تقدم قال ذلك الى ثورة كبرى . على ان الثورات كانت تتوالى في مصر بسبب ضغط العمال فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية اعمالهم وملاحظة سيرهم كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعد وادي النيل من مركز خلافتهم فكان العمال حتى في صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ويشددون في تحصيله كما فعل موسى بن علي سنة ١٥٦ هـ في اواخر ايام المنصور وموسى بن صعب في ايام المهدي فانه ضاعف الخراج وشدد في استخراجه ^(١) وربما كان ذلك بايعاز الخليفة لان المهدي زاد الخراج على أهل العراق كما رأيت

أما في ايام المأمون أي في ابان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان ^(٢) وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن اذا اعتبرنا الفرق في السعر بين تلك الايام واليوم . لان الخراج المضروب على اطيان مصر الخراجية (وهي الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصبها وهو وان كان على المساحة فاساسه المفاصلة . لانهم قسموا القطر المصري الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصبها . وأخصب النواحي لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً ^(٣) وأمثال هذه الفدادين قليل جداً . وأما الاكثر فخراجها حوالي مئة قرش وفيها ما خراجها عشرون قرشاً أو عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب لان الفدان الذي تقدير خراجها مئة قرش مثلاً يضمن بخمسة جنيهات او ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين رأينا معدل خراج الفدان لا يزيد على ٨٥ قرشاً لان في القطر المصري نحو ٥ ٥٠٠ ٠٠٠ فدان زراعي بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية ٥٧٠ ٦٥٢ ٤ جنيهاً ^(٤) فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً وقد تقدم في غير هذا المكان ان الفرس اليوم يساوي ثلث قرش تلك

(١) المتويزي ٣٠٨ ج ١ (٢) المقرئ ٩٩ ج ١ (٣) القوانين

المقاربة ١٦٤ وما بعدها (٤) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٢

الايام . فالديناران خراج الفدان في أيام المأمون يساويان ستة دنانير في هذه الايام او ثلاثة جنيهات . فيكون خراج مصر في أيام المأمون يزيد على ثلاثة اضعافه في هذه الايام (سنة ١٩٠٣)

ولكن يظهر ان الخراج في مصر زاد بعد المأمون حتى بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً فجعلها هو سبعة دنانير ^(١) وذلك شيء كثير

وقد رأينا في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي انه « ليس على مصر خراج ولكن يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها فاذا حصد ودرس وجمع ربشت بالعرام وتركتم ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الارض ويعطى ما بقي للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالارضين التي كانت الحكومة تقبلها أي تضمنها وليس لها مالك وقد تكون في الاصل لبعض القواد أو العمال من الروم الذين قتلوا في الحرب أو هربوا فبقيت حلالاً لبیت المال كما تقدم فيضمنها الحاكم يأخذ ضمايتها عيناً أو نقداً

(١) بلاد اخرى . وهناك بلاد بعضها كان يجبي بالمساحة والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلاً كان خراجها على ثلاثة أصناف (١) المقاسمة (٢) المساحة (٣) القواني وهي المقاطعات . على ان اكثر بلاد فارس على المساحة وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فانقلها في شيراز ^(٢) فان خراج الجريب حنطة أو شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والمباطخ $\frac{1}{4}$ ٢٣٧ درهم ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعة دوانق ومن السكر ١٤٢٥ درهماً ولكن الجريب عندهم كبير أي سبعون ذراعاً بذراع الملك وهو تسع قبضات ^(٣) فافرض الجريب جريبين من أجربة العراق فالخراج مع ذلك لا يزال ثقیلاً جداً . وهو خراج تلك البلاد في أواسط القرن الرابع ولم تقف على مقداره في ايام المأمون ومن هذا القبيل خراج المغرب في أيام الاغالبية فقد بلغ خراج الفدان في أيام عباس بن ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً ^(٤) ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من

(١) ابن حوقل ١٠٨ (٢) الاصل طخري ١٥٧ (٣) المقدسي ٤٥١

(٤) ابن الاثير ١٣٥ ج ٦

أصحاب الارضين وأما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال
وجملة القول ان الخراج كان في العصر العباسي الاول ثقيلاً ومع ذلك لم يكن
يعسر اقتضاؤه وقاما شكاً الناس نعله وربما استطاع العامل ان يجمع الملايين من
الدرهم بسهولة في بضعة أيام كما اتفق للمأمون لما مرّ بدمشق وكان أخوه المعتصم
عاملاً له عليها وقد قلّ المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال « يا أمير المؤمنين
كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعة » فجاءه بثلاثين الف الف درهم (٣٠ . ٠٠٠ . ٠٠٠)
من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف (١)

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الإشارة الى ما بقي من مصادر الجباية في العصر العباسي
الاول تمة للموضوع - منها :

١ (اعشار السفن) هي ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال مبالغ
وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبي في العصر العباسي ولكن
يؤخذ مما نعله من اتساع التجارة في تلك الايام بين العراق وسائر اقطار الدنيا
حتى الهند والصين ان السفن كانت كثيرة واحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً
واحداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له
مراكب تسافر الى اقصى بلاد الهند والصين بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها
١٠٠ . ٠٠٠ دينار في العام (٢) فاعتبر ذلك وقس عليه غيره في البصرة وغيرها من
نعمور الاسلام وفيها ما يكون اكثر دخله من اعشار السفن . فقد كان ضمان اعشار
المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠ . ٠٠٠ دينار (٣) وضمانها في القرن السادس
١١٢ . ٠٠٠ دينار (٤) والظاهر ان جباية تلك الاعشار كانت في العصر العباسي اقل
مما صارت اليه بعد ذلك لا تنازراً في جريدة علي بن عيسى التي كتبها للخليفة
المعتد سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب في البصرة بلغت ٢٢ ٥٧٥ ديناراً وقد

(١) الطبري ١١٤٣ ج ٣ — وفي ابن الاثير وابني الفداء والفخري ان مقدار ذلك
أمال ثلاثون الف الف درهم (٣٠ . ٠٠٠ . ٠٠٠ . ٠٠٠) وهذا خطأ من النساخ
(٢) ابن حوقل (ي الذيل) (٣) ابن حوقل ٢٠ (٤) ابن حوقل (ي الذيل)

تقدم ان اضعاف ذلك كان يحصل من أحد تجارها بعد قرنين

٢ (اخصاس المعادن) كانت المعادن عندهم ضربين ظاهرة وباطنة فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والمار والنفط فهذه لا يجوز اقطاعها لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذ من ورد اليه . وأما المعادن الباطنية فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها ^(١) ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناسج فيها عديدة ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفروز والزبرجد وغيرها وهالك امثلة منها ومن أمان وجودها

كان في خراسان معادن الذهب والفضة والفروز والرخام وطين الحتم والنوشادر والزئبق ^(٢) . وفي ما وراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق الذي لا يكثره معدن في الغزارة والكثرة ^(٣) . وفي بلاد فارس عامة المعادن الفضة والحديد والالوك والكبريت والنفط والصفرة والزئبق . وبغربي اصبهان معدن الكحل ^(٤) . وفي كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها أكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفرة ^(٥) . ومن هذا العيل مغاوص المرجان بسواحل افريقيا الشمالية وهو شيء كثير كانوا يوسفون من منجم واحد منه خمسين قارباً أو أكثر وفي كل قارب عشرون رطلاً ^(٦) . وفي سوريا معادن الحديد كانت بجوار بيروت والمغرة الجيدة في حلب وجبال الحمر في مكان آخر ومعدن الرخام في فلسطين ومعدن الكبريت في الاغوار ^(٧) . وفي مصر معادن الشب بالصعيد وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ويحمل منها الى الاسكندرية ايام النيل وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى ستة . وكذلك النطرون في البر الغربي للنيل وفي غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠٠٠٠ قنطار وكان يضمن في بعض الاحوال ضمناً تبلغ قيمته ١٥٥٠٠ دينار ^(٨) . وفي النوبة مما يحاذي اصوان معدن الذهب المشهور - قال ابن حوفل « والمعدن ليس من أرض مصر ولكن من

(١) الماوردي ١٨٧ (٢) المقدسي ٢٢٦ (٣) ابن حوقل ٣٣٧

(٤) الاصطخري ١١٥ و ٢٠٢ (٥) ابن الفقيه ٢٠٦ (٦) ابن حوقل ٥١

(٧) المقدسي ١٨٤ (٨) المقرئ ١٠٩ ج ١

أرض البجة وينتهي الى عيذاب والمعدن أرض مبسوطة لا جبل فيها وهي رمال ورضراض وجمع تجارهم العلافى » ^(١) . وفي بلاد الغرب مما يلي سجلماسة معادن الذهب والفضة وكذلك في ما وراء ذلك الى بلاد السودان ^(٢) . وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في بركة منقطعة عن العمارة ^(٣) . وفي البحرين بمخليج فارس مغاوص اللؤلؤ وفي صنعاء مناجم الفتيق وبين ينبع والمروة معادن الذهب وعلى شواطئ عدن ومخا الغنبر ^(٤)

هذه أمثلة مما كان في المملكة العباسية من المعادن تمثيلاً لما كان يجبي من اخماسها الى بيت المال . وكانوا يظفون هذه المعادن أقطاعاً أو يضمونها تضميناً بمال معين وقد يكون ذلك المال كثيراً - من أمثلة ذلك ان معادن الفبروز في يسابور بلغت ضمايتها في أواسط القرن الرابع للهجرة ٧٢٠ ٧٥٨ درهماً ^(٥)

٣ الجزية والزكاة كانت الجزية في صدر الاسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس في الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير في أول الاسلام ثم قلت أهميتها وسيأتي بيان ذلك

٤ (المكوس والمراسد) وهما تقابلان الكمارك والعوائد في هذه الأيام وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها من الانسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مال كبير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ولكن يظهر أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان وربما اختلفت في البلد الواحد باختلاف الزمان وفي الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره وإنما نأتي بما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر باواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التي كانت تؤخذ في تيس ودمايط قال « وأما الضرائب فتفيلة بمخاضة تيس ودمايط وعلى ساحل النيل وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي أن ينسج شيئاً منها إلا بعد ما يتختم عليها بتختم السلطان ولا ان تباع الا على يد ساهرة قد عقدت عليها وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالفتشر ثم الى من يشدها في السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم

(١) ابن حوقل ١٠٧ (٢) المقدسي ٢٣١ (٣) الاصلطخري ٥١

(٤) المقدسي ١٠١ (٥) المقدسي ٣٤١

له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة يؤخذ شيء وكل واحد يكتب على السقط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها . ويؤخذ بتيس على زق الزيت دينار ومثل هذا وإشباهه . ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب يقال رأيت بساحل تيس ضرائباً جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ومثله عدة على سواحل البحر في الصعيد وساحل الاسكندرية . وبلاسكندرية ايضاً على مراكب الغرب وباقر ما على مراكب الشام ويؤخذ بالفلزم من كل حمل درهم»^(١) و ذكر ابن حوقل انه كان يحصل مما يخرج من اذريجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب واسباب التجارات والابقار والاغنام ١٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة^(٢)

على ان هذه الضرائب وامثالها لم يكن لها رواج في اوائل الدولة العباسية ولا كانت غلتها تستحق الذكر ولكن دخلها تعاضد في عصر الانحطاط
 هـ (المستغلات وغلة دار الضرب) يراد بالمستغلات ما يجبي لبيت المال من اسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس في ارض تربتها للسلطان فيؤدون عنها اجرة^(٣) . وذكر ابن خرداذبة مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب في مدينة السلام بغداد ١٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة^(٤) وبلغت غلات ومستغلات سامراً وأسواقها ١٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة^(٥)
 فالدولة العباسية في ابان زهوها كانت تجبي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

(٤) صدق العمال في ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بني أمية انهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج لانفسهم اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية طعمة له في مقابل نصرته اياه على علي او بحجة الحاجة الى المال في الحروب كما حصل في ايام الحجاج او استرضاء لعامي متمرد التماساً لفعوده^(٦) او ان يعصى العامل

(١) المقدسي ٢١٣ (٢) ابن حوقل ٣٥٣ (٣) ابن حوقل ٢١٧

(٤) ابن خرداذبة ١٢٥ (٥) يعقوبي (كتاب البلدان) ٣٨

(٦) ابن الاثير ١٤٣ ج ٢

بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق في أيام أخيه يزيد^(١) فان يزيداً استحي أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه . ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال النفي والغنائم وهو من حق بيت المال وقد يذكرونه ويطمعون فيه كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨ هـ فانه اصاب مالا كثيراً بقي منه لبيت المال ٦٠٠٠ ٠٠٠ درهم كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه^(٢) - ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الاحوال الى ان يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس فقد كان معظم عمالهم في أوائل الدولة من اهلهم الاقربين ثم استعملوا انصارهم الفرس وهم اكثر الناس رغبة في قيام دولتهم . وكان الخلفاء من الجهة الاخرى لا يفصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم^(٣) وهي عمالة الفضل بن سهل على المشرق ولم يدرك مثلها أحد من عمال بني امية . لان اكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزد على ٦٠٠ ٠٠٠ درهم وهي عمالة يزيد ابن عمر بن هبيرة على العراق^(٤)

ومما ساعد بني العباس في أوائل دولتهم على حفظ نظام اعمالهم واجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم وخصوصاً البرامكة فأنهم كانوا واسطة عمد تلك الدولة وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال لانهم كانوا يعدون استيلاء بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ اعوام للتخلص من بني امية واحتقارهم اياهم

وهناك أسباب اخرى لكثرة جباية الدولة في أيام المأمون كعلة الحروب والفن فلما مذهب للاموال مضیعة للخراج مفسدة للاعمال لاشغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال في الجند

(١) ابن الاثير ٤٧ ج ٥ (٢) الطبري ١٣٣٤ و ١٣٥٠ ج ٢ (٣) الطبري

٨٤١ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

أسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن أسباب كثرة الخراج في الدولة العباسية بالقياس على أيام بني أمية وهذه الايام (سنة ١٩٠٣) وهي القسم الاول من أسباب الثروة العباسية فلنأت الى القسم الثاني وهو قلة النفقة وأهم أسبابها ثلاثة :

(١) - قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ويقال بالاجمال انهم أقل عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك في الحاکم القضائية ومقدار الفرق بين عدد موظفيها في عهد الاحكام العرفية وبينهم في عهد الاحكام القانونية وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه . ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعدد هم اليوم كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (في أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان . وخلاصة ذلك ان رئيسها الباشا وهو الوالي المرسل من الاستانة يليه ٢٤ ييكاً (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى في الفطر وهم :

- (١) الكخيا وهو نائب الباشا وكاتب سره
 - (٢) الدفتردار وهو ينظر في الخراج ويقابل ناظر المالية عندنا
 - (٣) امير الخزانة وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر
 - (٤) امير الحج وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز
 - (٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية
 - (٦) خمسة مدراء لاقليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والسرقية
- وهناك أربعة كشاف لاقالم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم واعمالهم مثل أعمال البكوات مديري الاقاليم الاخرى ومن المصالح الاخرى القاضي وامين الضربخانة والمحاسب

وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهي :

- (١) وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني
- (٢) وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج
- (٣) وجاق الهجانة
- (٤) وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق
- (٥) وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم
- (٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقية » واحدهم « وجاقي » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والحزندار والروزنامجي^(١) . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ما عدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلققه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ او قل ٣٠٠ او ٤٠٠ وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس والسجون وسائر المصالح مما يربو عدد موظفيها على الفين كما يأتي

الموظفون في الحكومة المصرية الان فئتان الفئة الاولى العمال . وهم الذين يتولون اعمالها وادارة شؤونها ومنهم النظار ورؤساء المصالح ورؤساء الافلام والكتاب والحساب . والفئة الثانية الخدمة ومنهم الفراشون والبوابون ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام^(٢)

(١) تاريخ مصر الحديث ٦٧ ج ١

(٢) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

عدد موظفي الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد		١٨ ٤٦٤	(مجموع ما قبله)
١ ١٢١	المعية وتوابعها	٢١٨	خفر السواحل
١٨	مجلس النظار	١٤٠	الدخوليات
٢٦	» الشورى	٤	مصايد الاسماك
٢٤	نظارة الخارجية	١٣	الرسالة
٤١٩	» المالية	١ ٩٣٨	السكة الحديدية
٤٢٤	» المعارف	٣٢٧	التلغرافات
١٨٦	» الداخلية	٢٩	ميناء الاسكندرية
٢ ٧٦٠	» الحماية	٥٥٠	البوسطة
٦٢٩	» الاشغال	١٠٣	الفنارات
٣ ٣٠٦	» الحربية	٦	الليمانات
١ ٧١٥	مصالح ادارة الاقليم ومالياتها	١٥	التمعة للمصاغات
٦ ٦٤٤	مصلحة البوليس	٣٠١	مكاتب تابعة للمعارف
٥٢٦	» الصحة	١١	الكتبخانة الخديوية
١٠٥	» السجون	٤	الاتسكخانة
١٥	» منع الرقيق	١٤	المطبعة الاهلية
٣٦	الدفترخانة	٩٠	املاك الميري الحرة والمشاركة
٥١٠	السكرارك	٢٢٧	الكومسيون البلدي
١٨ ٤٦٤	(المجموع)	٢٢ ٤٥٤	(الجملته)

فجملته موظفي الحكومة المصرية من العمال ٢٢ ٤٥٤ فاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الاراد اذ لا دخل لها في ادارة شؤون الحكومة وهي :

عدد	
١٩٣٨	السكك الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	ميناء الاسكندرية
٥٥٠	مصلحة البوسطة
١٠٣	الفنارات
٦	الليمانات
١٥	قلم التمغة
٢٩٦٨	(الجلمة)

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها ١٧١٥ كان المجموع ٦٨٣ ٤ وباخراجه من العدد الاصلي يبقى ١٧٧١ وهو عدد موظفي الحكومة في نظارتها ومصالحها ما عدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد وبين ما كان عليه في أيام المماليك وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية على ان ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية صفحة ٦٤ فانك ترى معظم اصحاب الرواتب هناك من الجند وخدمة البلاط والحرس الخاص والعلماء والحشم والفراسين واصحاب الصيد ونحوهم وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الا جزئاً صغيراً وهم المعبر عنهم صفحة ٦٦ « باكابر الكتاب واصحاب الدواوين والخزان والبوايين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) واسحق بن ابراهيم الماضي والفرسان ونفقات السجن والعلفة » ونحو ذلك . ولا نظن نفقات الحكومة على مصالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (اي ١٢٥٠٠٠٠ دينار) مع ان نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣٢٥٠٠٠٠ جنيه . وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزء صغير . واما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على ان السبب في قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ولكن هناك سبباً آخر ذا بال اعني تسديد ارزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل في باب الوارد . فقد رأيت صفحة ٦٦ ان ارزاق اكبر

الكتاب وأصحاب الدواوين والحزان الخ $\frac{2}{3}$ ١٥٦ دينار في اليوم غير أن هؤلاء ليسوا كل موظفي الدواوين بل هم الكبراء فقط . ويتضح ذلك من قوله هنالك « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفرون من أموال الساقطين وغرم الخلين بدواهم » ويدل ذلك أيضاً على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام اصغر البساعة اذا اراد ضبط حسابه فضلاً عن دوائر الحكومة . فان أموال الساقطين وغرم الخلين كان يجب ان تدون في ابواب الوارد وتدون رواتب أولئك الموظفين في باب النفقات . وعلى اتنا نستبعد ان لا يكون لهذه الفيود محل في دفاتر الحكومة العباسية وانها اسقطت من هذه العامة حياً بالاختصار او لاسباب اخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من ادران التمدن الحديث انغماس الحكومات الاوربية في الديون وما من دولة الا وهي مديونة بمال لا بد لها من تأدية فوائده أو تسديد بعضه من دخلها كل عام . فهو عبء ثقیل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلها مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية او انها كانت خفيفة جداً . فقد تقدم صفحة ٦٩ ان دخل انكلترا ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيهه يجتمع نحو اربعة اخماسها من ضرائب اكثرها حديثة العهد وان نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن اسباب ذلك ان ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقى في خزانة الحكومة الانكليزية كل عام حوالي ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه أي نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انكلترا وحدها غارقة في الديون فان معظم دول اوربا مثلها وان تفاوتت ديونها — وهالك ديون اشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر بقطع النظر عن كسور المليون وقد رتبناها في الجدول الآتي باعتبار الاكبرية

ديون اشهر دول العالم (١)

جنيه	جنيه
فرنسا ١ ٢٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	(مجموع ما قبله) ٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠
انكلترا ٧٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	المانيا ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
روسيا ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	هولندا ٩٣ ٠٠٠ ٠٠٠
الولايات المتحدة ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	الصين ٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠
الدولة العثمانية ١ ٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	اليابان ٤٨ ٠٠٠ ٠٠٠
النمسا ١ ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	ايطاليا ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠
مصر ١٠٣ ٠٠٠ ٠٠٠	اسبانيا ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠
(المجموع) ٢ ٧٠١ ٠٠٠ ٠٠٠	(الجملته) ٣ ٠٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠

وقد رآمت هذه الديون على تلك الدول بتوالي الاجيال بما احتاجت اليه من النفقة في الحروب أو في انشاء المشروعات الكبرى أو نحو ذلك مما لم تكن الدولة العباسية في غنى عنه ولكنها كانت في أيام زهوها تنفق مما تذخره من فضلات الحياة كما تقدم . فلما قلت الحياة وكثرت اسباب النفقة في طور الانحطاط ولم يبق في بيت مالها ما تنفقه في الحروب عمدت الى استخراج الاموال من أهل الثروة وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء والعمال والكتّاب الذين انما اُروا من مالها بالاختلاس ونحوه وسموا ذلك مصادرة كما سيأتي

على ان الدولة العباسية كانت في بعض الاحوال تستلف من بعض التجار أموالاً في مقابل أوراق لم يحل اجلها واكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود وهم اقدر الناس على المراقبة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذي كانوا يأخذونه على تلك السلفيات نحو ٢٠ في المئة ففد كان علي بن عيسى وزير المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استلف من التجار على سفايح وردت من الاطراف ولم تحل بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دائق ونصف على كل دينار في الشهر فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها في الشهر ٢ ٥٠٠ درهم . واشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود في بغداد

رجل كان يعرف يوسف بن فتحاس وهو من تجار الاهواز أيضاً وآخر اسمه هروز ابن عمران أو من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة ^(١) — غير ان ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلي الشائع في هذه الايام

(٣) اقتضاء الخلفاء الاولين وتدريبهم

من الامور المعروفة في التاريخ السياسي ان مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ولولا ذلك لم يأت لهم انشاء الدول أو تثبيت دعائمها ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى النمو بالادخار . فاذا بلغت الدولة شباهها وتم نموها عادت ناكسة على عقبها كما يتقهر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة فتناولها المنصور صبية فغذاها وأتمها حتى أدركت شباهها في أيام الرشيد والمأمون ثم تقهقرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في أيام الخلفاء التابعين

توفي السفاح وقد ملك أربع سنوات ولم يخلف سوى بعض الثياب ^(٢) ولو كان طماعاً لجمع مالا كثيراً لكنرة ما وقع له من غنائم بني أمية فضلاً عن الجبايات وغيرها

وخلفه المنصور فتولاها بضعا وعشرين سنة أذخر في أثنائها نحو ٨١٠ ٠٠ ٠٠٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متهماً بالبخل ولم يكن بخيلاً ولكن كما لا يوضع السكرم في غير موضعه — لم يكن يبذل المال الا اذا رأى في بذله منفعة في تأييد دولته . وفضل المنصور في تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب في تأييد الاسلام — يكفيك من دلائل اقتضاده وتدريبه وحسن نظره ما أوصى به ابنه المهدي عند وفاته . من ذلك قوله « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشرين سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث .. واياك ان تدخل النساء في أمرك واياك والآثرة والتبذير لأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الاطراف وأمن السبل العامة وادخل المرافق عليهم وادفع المسكاره عنهم واعد الاموال واخزنها فان النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان

واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فيتدارك عليك الامور وتضيع واعد رجالاً في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً في النهار لمعرفة ما يكون في الليل وباشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تسكل واستعمل حسن الظن وأسى الظن بعمالك وكتابك وخذ نفسك بالتيقظ » (١)

قضى المنصور مدة خلافته ولم ير في داره لهُو ولا شيء يشبه اللهو أو اللعب أو العبث الا مرة وكان في مجلسه فسمع جلبة فأمر حماداً التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فعرض فرأى خادماً من خدم المنصور قد جلس وحوله الجوارى وهو يضرب لهُن بالطنبور وهن يضحكن فعاد حماد وأخبر المنصور فقال « وأي شيء هو الطنبور » فوصفه له فقال « وما يدريك أنت ما الطنبور » فقال « رأيته بخراسان » فقام المنصور ومشى الى الجوارى فلما رأيته تفرقن خوفاً منه فأمر بالخدام فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرج الخادم فباعه وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس فيرتدي بحبة هروبة ويرقع قميصه واذا استجداه أحد بخل الا اذا رأى الجود لازماً . فربما سأله أحدهم درهماً فلا يعطيه ويعطي الاخر ألفاً بلا سؤال . من أمثلة ذلك ان أحد معارفه العدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيراً فسأله المنصور « ما عيالك » قال « ثلاث بنات والمرأة خادم لهن » فقال له « أنت أيسر العرب . أربع مغازل يدرن في بيتك » ولم يعطه شيئاً . ولما توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم « خلف ألف دينار أنفقت امرأته على مأتمه » فقال « كم خلفت من البنات » . قال « ستاً » فأطرق المنصور ثم أمر لسكل من البنات بثلاثين ألف دينار وسعى في تزويجهن . وفرق المنصور في أهل بيته في يوم واحد ١٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٢)

ولما توفي المنصور خلفه ابنه المهدي وكان شبيهاً بأبيه من عدة وجوه ومن جعلها النظر في دقائق الامور . وفي أيامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة وتقررت الفوائد على يد وزيره معاوية بن يسار (٣) . وكان يجلس للمظالم بنفسه وكان قتيلاً ورعاً ولكنه لم يكن في مثل ما كان عليه أبوه من الاقتصاد . وتولى بعده الهادي زمناً قصيراً ثم الرشيد وكان تديبر المملكة قد أفضى الى الوزراء من آل زمك وقد اتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة أهل كرم وسخاء فزادوا

(١) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) الغزري ١٦٣

الخلفاء كرماء وكانوا يحرضونهم على ذلك منذ صغرهم كما فعل يحيى البرمكي بالرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال « يا أمير المؤمنين عطبت دابتي » فقال الرشيد « يعطى خمسمائة درهم » فغمزه يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى « يا أبتاه أومأت اليّ بشيء وقت ما أمرت بالدراهم فما هو » فقال « مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه إنما يذكر مثلك خمسة آلاف الف وعشرة آلاف الف » قال « فإذا سئلت مثل هذا كيف أقول » فقال « تقول يشتري له دابة يفعل به فعل نظرائه » (١)

وكان الرشيد ميالاً للوجود من فطرته فذشطه ذلك حتى صار الى أبعد مما أرادوه واضطروا الى ايفاقه عند حده (٢) . وأوغل الخلفاء بعد ذلك في البذخ والاسراف وهما من أسباب سهو دولتهم على ما سيجيء
وجملة العول ان أسباب الثروة العباسية كثرة الدخل وقلة النفقة . وأسباب كثرة الدخل (١) سعة المملكة (٢) اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطرمهم (٣) ثقل الخراج المضروب على الأرض (٤) صدق العمال في ارسال المال المجموع الى بغداد . وأسباب قلة النفقة (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين (٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ثروة الدولة العباسية

في عصر الانحطاط

تمهيد — في أسباب ذلك الانحطاط

شكل دولة أديوار شبيهة بأديوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة . فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر . ثم أخذت يمدّها في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الاموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد . والدولة الاموية بالاندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصري وابنه الحكم . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان . وقس عليه . وقد قسم ابن خلدون أيام الدولة الى خمسة أطوار (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ والدعة (٤) المسألة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير ^(١) . وهو تقسيم اجمالي ربما لا ينطبق على أحوال الدول انطباقاً تاماً الا بالتأويل . وأما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية في عصر الانحطاط ان نذكر أسباب ذلك الانحطاط مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

(العرب والفرس) علمت مما تقدم ان الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتفاعاً لانفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك ففروهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم . فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون الى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم في ارجاع نفوذهم . وبلغ الفرس ارفع المنازل عند العباسيين في أيام البرامكة فزاد حقدهم عليهم وسعوا في اسقاطهم رغم ما كان من جود البرامكة وكرم أخلاقهم — ولعلمهم كانوا يبالغون

في السخاء دفاعاً عن مركزهم . على أنهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب فوشوا بهم واتهموهم بالطمع في الملك حتى نكهم الرشيد . ومن أشهر وشاتهم الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربياً ولكنه ينسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى عثمان بن عفان ^(١)

فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم مات الرشيد واختلف ابنه الامين والمأمون على الخلافة والامين عربي الابوين لان أمه زبيدة حفيدة المنصور . فاخذ أهل بغداد بناصره وفيهم جنود العرب (الحربية) . وأما المأمون فامه فارسية وكان في خراسان بين أخواله وشيعته ^(٢) فنصره الخراسانيون كما نصرُوا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الامين وفوز المأمون فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتيانه العرب . فغظم ذلك على هؤلاء وخصوصاً لما نولى الحسن بن سهل وهو فارسي محوسي الاصل حديث العهد في الاسلام فظعنوا في اسلامه وقالوا « لا رضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً ^(٣) وجاء المأمون الى بغداد واستتب الامر له ولنصرائه واشتغل هو بالعلم والفلسفة فخره ذلك الى القول بان القرآن مخلوق فازداد العرب كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده

(الآراء) فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم بالله وكانت أمه تركية الاصل من بلاد السغد في تركستان ^(٤) فشب محباً للآراء وكان قد اصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الامين وهي أول مظاهر جراتهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم اياه العباسيون من الاذلال . وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربتهم — فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صبيان الآراء والفراعنة فهان عليه اقتناؤهم لاتصال نسب أمه بهم . فاقتنى منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً ^(٥)

(١) ابن خلكان ٤١٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٩٢ ح ٦ (٣) ابن الاثير ١٢٩ ح ٦

(٤) ابن الاثير ٢١٥ ج ٦ (٥) الفرمانى ١٥٧

فصاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم فابتنى لهم مدينة سامراً واقامهم فيها^(١) وأطلق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولا ريب انهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه والفوز في حروبه ضد اعدائه من الروم والترك ولكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلاً الى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الاموال واستشارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لاغراضهم

وكان المأمون عالماً حكيماً وكل بطائنه وجلسائه من أهل الحكمة والعلم وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب امثال برقته ودعته — قال يحيى بن اكرم : ماشيتُ المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهدي فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس فلما انتهى الى آخره وأراد الرجوع اردت أن ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال « لا تفعل ولكن كن بحالك حتى استرك كما سترتني » فقلت « يا امير المؤمنين لو قدرت ان اريك حر النار لفعلت فكيف الشمس » فقال « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى سائراً لي من الشمس كما سترته^(٢)

وقال يحيى ايضاً « كنت نائماً عند المأمون فعضش فامتنع أن يصيح بسلام يسقيه وانا نائم فينص عليّ نومي فرأيتـه وقد قام يمشي على اطراف اصابعه حتى أتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة فاخذ منها كوزاً فشرب ثم رجع يمشي على أطراف اصابعه حتى قرب من الفرائس الذي أنا عليه فخطا خطوات خائف لئلا يفتني حتى صار الى فراشه »

وبالغ المأمون بلاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر « كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخدام يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول « ما ينبغي للغلام ان يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أن يأمرني بضرب عنقه ثم نظر اليّ فقال : يا عبد الله ان الرجل اذا حسنت اخلاقه سامت اخلاق خدمه واذا ساءت

اخلاقه حسنت اخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن اخلاق خدمنا « (١)

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . خلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة (٢) وكان غضوباً شديد النقرة (٣) منصرف الهمة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة (٤) وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات (٥) . فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين أخيه فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة في أترأكه و فراغته . وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل العول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدّة في تأييده حتى أنه أحضر احمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب الى العول بخلفه فامر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مفيداً (٦) فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكثر بذلك وإنما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد في الاسلام وفي الحمدن الاسلامي لأنهم جاؤوا من بلاد كانت لا تزال في عهد الجاهلية وكانوا حجرة عثرة في طريق ذلك التمدن ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة بالتفهر من ذلك الحين

(المال) وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأسيس الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الامويون الخلافة احتاجوا الى المال فبدلوا كل وسيلة في سبيل جمعه وقلت الرغبة في تأييد قواعد الدين ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه اخنقارهم سائر الامم . فكان مطمح انظارهم « العرب والمال » فلما تولى العباسيون أهملوا أمر العرب واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق وانصرفوا في أيام زهوهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريفيين في المدنية قبل الفتح الاسلامي وفيهم استعداد فطري للتمدن فضلاً عن ان تأسيس الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لان مركز الخلافة فيها . فالخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ففاضت الاموال في خزائن الخلفاء ورجال

(١) المستطرف ٩٦ ج ١ (٢) انقرماني ١٥٥ (٣) ابو الفداء ٢٧ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢١٦ ج ٢ (٥) البخري ٢٠٩ (٦) ابن الاثير ١٨١ ج ٦

دولتهم فاسرفوا وبذخوا وانغمسوا في الرخاء والرغد والترف حتى بلغوا قمة المجد في أيام الرشيد والمأمون . فلما كانت أيام المعتصم واستكثر من الممالك الارتكاس تقدم واستخدمهم في مصالح الدولة انحصرت غاية رجال الدولة في اختزان الاموال لانفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لانها ليست بلادهم ولا أهلها اهلهم . وأما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم^(١) وضعف الخلفاء عن رد شكيتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء في اصلاح شؤونهم واستبقاء سلطانهم الى الجند والجند يتطلبون الاموال والاموال عند الوزراء والعمال والكتاب فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء أي اخذوا اهلهم بالقوة . والمصادرة نحتاج الى رجال وهم لا يعملون عملاً الا بالمال

فاصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم. واحت الحمية الفرشية التي قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير أن يخالف اياه مصعباً في أثناء محاربته عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياء من قريش — وكان مصعب قد يئس من البقاء وهو يدافع عن حق أخيه عبد الله في الخلافة فخاه محمد ابن مروان فبذل له الامان اذا سلم فاني ولكنني حرص ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فاجابه الغلام « لاتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له مصعب « اذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » فقال الغلام « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ولكن يا أباي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمر المؤمنين » فقال مصعب « لاتحدث قريش اني فررت » ثم قال لابنه « تعمد اني احتسبك » فتقدم وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً^(٢) ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية في ابان عمرائها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت بالتقهقر بفترة من أيام المعتصم — ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجاميع

القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها أكثرها وهي :

١ قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦ ١٥٥ ٠٠٠ درهم

٢ » قدامة حوالي » ٢٢٥ » » ٣٨٨ ٢٩١ ٣٥٠ »

٣ » ابن خرداذبه » » ٢٥٠ » » ٢٩٩ ٢٥٦ ٣٤٠ »

فترى ان ارتفاع الدولة كان في أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الاموال والعلات . ثم صار في الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ثم صار في أواسط ذلك القرن أقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدرج في النقص الى اواخر ايام الدولة . على أننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً في كل العصور لقلة المصادر التي بلغت إلينا في هذا الشأن اما لعدم عناية الحكومة في تدوين الميزانيات المضبوطة أو لضيعائها في اثناء الفتن الاهلية وغيرها

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

واذا نظرنا في ما كان مجتمع بيت المال من بقايا الجباية على توالي الاعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على أنهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الامين (سنة ١٩٣ - ١٩٨) وما جمعه المأمون والمعتصم والوافق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ - ٢٤٧) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهدي والمعتمد والمعتمد والمسكتفي أنفقه المفتر (سنة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)

اما مقدار الجباية في العام فلم تتوفق الى تفصيل لها الا في أيام المفتر ان اضطر وزيره علي بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز أن يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى أظهرها البارون فوق كريم ونشرها في كتاب سماه جباية الدولة العباسية ^(١) لسنة ٣٠٦ وصدره بمقدمة المائسة ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة وما

جباية الدولة العباسية سنة ٣٠٦ هـ

وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر — كما قرأها فون كريم

١ — جباية السواد

حرف عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة

دينار	اموال السواد وطساسيجه وصدقات اراضي المغرب بابل
١٥٤٧٧٣٤	والمرابها وسائر ما ينسب اليها ويجري معها
(تفصيلها)	

٠	بازوريا وكلاودي ونهر بين ٢٨٣ ١٦٦ درهم
١٩٨ ٣١٣	الانبار وقطربل وسد
٧٥ ٥٧٦	بهرسير والرومقان واغار يقطين وجازر والمدينة الغنيقة
٢٥ ٠٠٠	كوئي ونهر درقيط
٩ ٥٢٦	الزاب الاعلى ونهر كشتلسب
١٦ ٧٢٦	الفلوجة العليا والارحاء
١٣ ٥٨٥	الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر
١٤٠ ٢٥٩	السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرية وباروسما الاعلى
٣٨ ٣٥٠	نهر الملك ومورجا ونهر جوهر والاساسان والمالكيات
٤٦ ٣٣٦	باروسما الاسفل
١١٠ ١٥٤	طساسيجة السكوفة والخزن
٥٠ ٢١٩	العمارات بسر من رأي
٢٠ ٥٩٠	نهر بوق والدير الاسفل
٢٤ ٣٠٠	بزر جسابور
٣٠ ٠٣٥	الراذابان
١٣ ٦٦٦	روستقباد
٤٦ ٤٨٠	النهران الاعلى وسمنطاي
٨٥٩ ١٢٥	(المجموع)

(مجموع ما قبله)	٨٥٩ ١٢٥
النهران الاوسط	٤٠ ٣٢٧
النهران الاسفل	٦٠ ٥٣٢
الصلح والمنازل	١٥٩ ٠٨٩
بادرايا وباكسايا	٤٢ ٤٩٩
واسط مع الخاصة والمستحقة والعباسية بعد النفقات الراتبية	٣١٠ ٧٢٠
البصرة وكور دجلة	١٢١ ٠٩٥
المراكب بالبصرة	٢٢ ٥٧٥
أموال الضمانات وما يؤدي عن فصول الانهار مما ينسب الى مفردات	٤٢ ٧٥٠
العبارة بهيت	٨٠ ٢٥٠
أسواق الغنم بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة	١٦ ٩٧٥
دور الضرب بمدينة السلام وسر من رأى وواسط والبصرة والكوفة	٦٠ ٣٧٠
الجوالي بمدينة السلام	١٦ ٠٠٠
ما يؤدي الى الحضرة عن مال الارتفاقات والشجر والمقاطعات	١٣ ٨٧٤
(المجموع) (١)	١ ٨٤٦ ١٨١

٢ — جباية المشرق

كور الاهواز ضماناً على ابراهيم بن عبد الله المسبيع وغيره	١ ٢٦٠ ٩٢٢
{ أموال فارس مع ما يسوغه مونس الخادم مع ما في أيدي أصحاب	١ ٦٣٤ ٥٢٠
الاطراف مما أورد نقلاً (هبة) فقط	
ضياع الامراء بهذه النواحي مع مال المراكب بسيراف	٢٥٨ ٠٤٠
{ كرمات مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورث وقرى	٣٦٤ ٣٨٠
(المقازة وما يسوغه مونس الخادم عن مال الخزن والجهينة (الصيرفة)	
مقاطعة عمان سوى اللطف (هدايا) المحمول الى الحضرة	٨٠ ٠٠٠
(المجموع)	٣ ٥٩٧ ٨٦٢

(١) ترى فرقاً بين هذا المجموع والمجلد المذكور في أول القائمة لعل سببه خطأ في قراءة الاعداد في الاصل وسنستند على المجلد الاول

(مجموع ما قبله) ٣٥٩٧٨٦٢

ارتفاع الخراج والضياع العامة بالمشرق على العقد والارتفاع بالامانة والضمانة ١٥٧٠ ٥٢٥	
الخارج والاعشار والاختاس بالري والدماوند مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد بن علي	٤٦٥ ٠٧٨
الضياع بها	١٢٢ ٦٤٤

قزوين وزنجان واهر

الخراج ١١٥ ٧١٠

الضياع ٥٨ ٢٩٠

قم

الخراج ١٩٧ ٢٢٩

الضياع ٨٠ ٢٢٩

أصفهان

الخارج على العقد المجددة مع خراج الاكراد (وما يغل من الايفار وضياع السلطان)	٤١٠ ١٧٨
--	---------

الضياع بها ١٨٩ ٣٣٤

ماه البصرة والايغارين

الخراج ١٨٥ ٦٣٦

الضياع ٢٦٧ ٥٢٠

همدان

الخراج ١٥٠ ٤٨٠

الضياع ٥٥ ٧٨٩

ماسبدان

الخراج ٥٧ ٧٤٦

الضياع ١٦ ٧٥٠

ساوة ودار الضرب بها

١٧ ٦٢٥ ٢ ٣٩٠ ٢٣٨

(المجموع) ٥٩٨٨ ١٠٠

(مجموع ما قبله)		٥٩٨٨١٠٠
ماہ الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحدثة والطعم	}	١٠٥٦٧٨
الضياع بها		٨٩٥٠٠
حلوان عن الخراج والضياع		٣٠٠١٥
		٢٢٥١٩٣
آذربيجان وأرمينية على المعرفة التي فورق عليها سبيل السعر		٢٢٦٣٧٠
(المجموع)		٦٤٣٩٦٦٣

٣ — جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب واجناده بعد الاحتسابات التي وضعها العمال من أصول الارتفاع كما هو جار في العادات وسوى مقاطعة وثمن أجناس الغنائم معما فورق أهل (جزيرة قبرس) على ادائه في كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة

يكون

ما يتعلق بالمغرب واجناده

٤٧٤٦٤٩٢

تفصيله

مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة	٢٩٠ ٧٧٣
} وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة واثمان الغنائم	١٠٨٠ ٠٠
جند فلسطين بعد الاحتسابات	
مال	٨٠ ٧٥٠
	٢٣٠ ٦٤٧
جند الاردن بعد الاحتسابات	
مال	٤٠ ٤٦٠
(المجموع)	١ ٧٢٢ ٦٣٠

(مجموع ما قبله)	١٧٢٢ ٦٣٠
	١٠٢ ٠٦٢
جند دمشق بعد الاحتسابات	
مال	١١٣ ٠٥٨
	٣١٥ ٣٠٠
جند حمص بعد الاحتسابات	
مال	٢٠٠ ٤٦٠
	٩١٥ ١١٤
جند فزسين والعواصم بعد الاحتسابات	
مال	١٣٣ ٠٩٧
	٣٥٢ ٥٧٠
دلوك ورعبان	١٥ ٧٦٥
الثغور الشامية سوى صلح (اي ماصولح عليه) احمد بن الحسين الكاتب	٥٢ ٩٨٥
شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع (اي بعد الذي	٥ ٣٩٧
وضع منه اي اسقط)	
مال	
	٦٥ ٣٣٢
سميدساط وملطية بعد الاحتسابات	
مال	١٤ ٥٠١
	٣٤ ١٢٠
آمد سوى ما جمع في اقطاع وكاسه وبعد الاحتسابات	
مال	٥ ٤٧٨
	٨٢ ٤٢٢
ارزان وميا فارقين بعد الاحتسابات	
مال	٥٦ ٧٥٠
	٨٢ ٤٢٢
(المجموع)	٣ ٤٦٨ ٤٦٢

٤٦٢ ٤٦٨ ٣ (مجموع ما قبله)

ديار مفر

٢٥٧ ٢٢٥

ديار ربيعة بعد الاحتسابات

٢٢ ٧٩٧ مال

٣٠٤ ٠٩٣

الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الجبائية بعد الاحتسابات

١٧ ٧٥٠ مال

٤٩٢ ٤٣٠

٩٦ ٥٨٤ طريق الفرات

٤ ٦٥٩ ٣٤١ (المجموع) ^(١)

٤ --- جباية الاموال الخاصة

يكون اموال الاعمال المسماة واموال الخاصة

والاموال الموقوفة وغير ذلك

الضياع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسطاسوة حال الخاصة ٢٨٩ ٠٣٦

اموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحي واسط فانه اضيف الى	} ٥١٦ ٤٤٧
اموال العامة وخايطها ودخل في حمولها ونفقاتها	

١٦٥ ٤١١ الدبر (امالان الشواطيء اي الاملاك على السواحل)

١١٦ ١٢٠ الاهوار (المستنقعات)

٧٢ ٦٦٦ المشرق

١٠٤ ٠٠٠ المغرب

١٨ ٧٧٨ هيت واعمالها سوى ضياع السكر

٨ ٢٤٠ العبر ٥٨ ٤٥٠ المغرب

٥ ٢٦٢ الاهوار ٦٢ ٢٠٠ المشرق

٨٢٤ ٢٦١ (المجموع)

(١) ترى فرقا بين هذا المجموع والمجموع المذكور في اعلاه وسنعمد على ذلك

(مجموع ما قبله) ٨٢٤ ٢٦١

١٤٤ ٧٦٠ مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط

١٤٧٣٢ العبر

١٤ ٢٤٦ الاهوار

٣٠ ٦٧٢ المشرق

٧٥ ١١٦ المغرب

٤ ٥٧٠ مال الموقوف للمساجد سوى ما كان منها بواسط

٢٢ ٨٦٩ الشرق

١٢ ٧٦٠ المغرب

٦١٧ ١٢٦ مال الضياع القراتية

١٧٠ ٣٢٦ العبر

١٢٩ ٧٢٤ الاهوار

٩٧ ٣٣٦ فارس

٩٥ ٢٧٨ المشرق

١١٤ ٢٢٥ المغرب

١٠٠ ٣١٨ مال الضياع المفردة في سنة ثلث وثلثمائة

٧١ ٩٨٠ مال الخزن والجهنزة سوى ما يجمعه العمال مع اصول الاموال وسوى

ماسوغه مونس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها في ضمان واسط

(المجموع) ١٧٦٨ ٠١٥

الخلاصة

١٥٤٧ ٧٣٤ جباية السواد

٦٤٣٩ ٦٦٣ » المشرق

٤٧٤٦ ٤٩٢ » المغرب

١٧٦٨ ٠١٥ » الاموال الخاصة

١٤٥٠١ ٩٠٤ دنانير

نسبة هذه الحباية الى ما كانت عليه في العصر العباسي الاول
فمجموع هذه الحباية أكثر من ١٤ مليوناً ونصف مليون من الدينار وإذا
تحولت الى دراهم بلغت نحو حباية العصر العباسي الأول . غير ان الحال في هذه
الحباية غير ما كانت عليه في ذلك العصر . لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة
للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لأسباب سيأتي بيانها . من أدلة ذلك ما جاء
في عنوان السير عن نفقات الدولة على عهد علي بن عيسى وقد ذكرها المؤلف
المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهي :

دينار

نفقات الحرمين وطريقهما	٣١٥ ٤٢٦ $\frac{1}{4}$
» الثغور	٤٩١ ٤٥٦
رواتب العضاة في الممالك	٥٦ ٥٦٩
رواتب ولاية الحسبة والمظالم في جميع البلاد	٣٤ ٤٣٩
» أصحاب البريد	٧٩ ٤٠٢
	٩١٧ ٢٩٢ $\frac{1}{4}$

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر في قائمة المعتضد — ناهيك بزيادة الجند
وغیره من أسباب النفقة بحيث زاد الخراج على الدخل في أيام علي المذكور
٢٠٨٩٨٩٤ ديناراً (١)

وقس على ذلك أحوال بيت المال قبل المعتضد وبعده مما يختلف باختلاف الخلفاء
والوزراء وسائر الاحوال . ولكن يقال بالاجمال ان الثروة تدهورت بعد المأمون
بتقهر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج
ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بهية الا في أحوال خصوصية وبمبالغ صغيرة
فالمعتصم ترك في بيت ماله ٨٠٠٠٠٠٠ درهم (٢) والمستعين (سنة ٢٥١) خلف
في بيت المال ٥٠٠٠٠٠٠ دينار (٣) والمكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥٠٠٠٠٠٠
دينار والظاهر أنها اجتمعت بتوالي الخلفاء فلما تولى المعتضد أنفقها كلها وأنفق ما جمعه

(١) عنوان السير نقله كريمة في كتاب Elm. Abbasiden

(٢) الفخري ٢٠٩ (٣) الطبري ١٥٤٥ نج ٣

في أيامه من أموال المصادرة فضلاً عن الحراج^(١) حتى قدروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و ٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار^(٢) ما عدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والعلماء للخلافة ان يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب^(٣). وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ انه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع ٤٠٠ ٠٠٠ درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد^(٤). وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الرازي بالله سنة ٣٢٢ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة^(٥)

ولانحطاط الثروة العباسية أسباب نوضح كثيراً مما جاء في جريدة علي بن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة

(١) ابن الاثير ٤ ج ٨

(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٣) صلة تاريخ الطبري ١٤٤

(٤) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ (٥) المحري ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨

اسباب انحطاط الثروة العباسية

في العصر العباسي الثاني

قلنا في بحثنا عن الثروة العباسية في العصر العباسي الاول وعلة كثرتها ان اسباب تلك الثروة كثرة الجباية وقلة النفقة وفصلنا ذلك تفصيلاً . فاسباب قلة الثروة يجب ان تكون قلة الجباية وكثرة النفقة ولكل من هذين البابين فروع لكل منها اسباب هاك تفصيلها :

اسباب قلة الجباية

(١) ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها في أيام الرشيد والمأمون ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . وأول ما استغل من الولايات العباسية افریفة بدأت بالاستقلال في أيام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان في أيام المأمون ثم مصر في أيام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها . ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواحدة الى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين ^(١) . على ان معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي اليه الاموال بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخرباسم الهدية أوغير ذلك . وكان أكثرهم لا يؤدي ما عليه الا مرة كل بضعة أعوام . وطبيعي ان تشتت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

(٢) تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها نعل الضرائب وخصوصاً في العراق اذ كانت مفاسمة على النصف الى أيام المأمون . فأدرك هذا الخليفة العاقل نفل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والاموال متوفرة فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين ^(١) أي انه أنقصه عشرين في المئة وهو اسفاط عظيم وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع حباية العراق حالاً اذ كان في قائمة قدامة ٦٥٠ ٤٥٧ ١١٤ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبه ٣٢٠ ٣١٩ ٧٨ درهماً لان الأول قدره على ما يظهر باعتبار النصف واثاني باعتبار الخمسين

واقعدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ ٢٣٢ هـ أعشار السفن ^(٢) وقد رأيت انها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير . واقعدى بالواثق خلفه المتوكل فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بحباية الخراج في النوروز وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكسبون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة أسفطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز أو يطالبون بالخراج الا بعد شهر أي حتى يأتي الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في حباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون وكان ذلك في ولاية خالد الفسري على العراق فأراد الفرس ان يسفطوا شهراً على جاري عاذهم فهاهم خالد وقال « هذا من النسيء الذي نهى الله عنه » واسنار الخليفة هشام بن عبد الملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجاري متقدماً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضح فيه العلات وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك فأراد يحيى ان يحجب طابهم فتقول أعداؤه في ميله الى الزرداشية فعدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاظم بتوالي الاعوام حتى صار في أيام

(١) الفجري ١٩٨ وان' الاير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣

(٢) الطبري ١٣٦٣ ج ٣

المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع أخضر . واتفق ان المتوكل مرَّ ببستان فرأى الزرع أخضر فقال لرفيق له « ما لي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج » فقصَّ عليه السبب فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم . فأصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس ^(١) لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحرى في ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهد الذي كان سمنه ازدشير
ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لانه قتل بعد قليل واضطربت أحوال الخلافة
حتى اذا كانت أيام المعتضد بالله روجع في ذلك فأصدر أمره آخر سنة ٢٨١ هـ
بتأخير النوروز ستين يوماً وكان قد وافق اوائل المحرم سنة ٢٨٢ فامر أن يكون
في ١٣ ربيع أول منها . وجعلوه موافقاً ١١ حزيران (يونيو) وان يكبس بعد
ذلك في كل أربع سنين من سني الفرس يوم واحد - ^(٢) فعل ذلك ترفيهاً للناس
ورفقاً بهم ^(٣)

وكان المهدي (٢٥٥ هـ) قد امر باسقاط الكسور عما بقي من الزرع على
المساحة - وذلك ان انصور لما جعل خراج العراق مفاصلة كما تقدم ابقى بعضه على
اسم الخراج القديم بالمساحة وكان ينكسر على اصحابه شيء كل عام والحكومة تطالب
به . فلما تولى المهدي أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن امثالها ومقدار ذلك
نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٤)

فترى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه في عصر الرشيد
والمأمون وكان ذلك مساعداً على تهليل الحياة

(الجزية والزكاة) ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول
الناس في الاسلام بتوالي الاعوام حتى انحط مقدار ما يجبي منها بمدينة السلام في
أواسط القرن الثالث للهجرة الى ١٣٠٠٠٠ درهم ^(٥) وقد رأيت في قائمة علي
ابن عيسى أنهم جبوها ١٦٠٠٠ دينار أي نحو ضعفي ما ذكره ابن خردادبة ومع
ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على اوسط قيمتها وهي ٢٤ درهماً على الشخص كان عدد

(١) البيروني ٣١ (٢) المقرئ ١٧٣ ج ١ (٣) ابن الاثير ١٧٦ ج ٧

(٤) الماوردي ٧٧ (٥) ابن خردادبة ١٢٥

الرجال نحو ٩٠٠٠ وبإضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠٠٠٠ نفس من أهل الذمة في مدينة بغداد من النصارى واليهود وهي في ابان مجدها وسكناها يزيدون على المليون . ففس على ذلك سائر المدن ويقال نحو ذلك ايضاً في الزكاة فقد تناقصت بتوالي الاعوام حتى كادت تنلاشي واصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر^(١) وكانت قد ابطلت في مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الايوبي . وتذمر المسلمون منها وشنعوا على الذي يطالب بها حتى اذا تولى المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر^(٢)

(٣) استثمار العمال بالحياة

قد رأيت استبداد العمال في عصر بني أمية واستثمارهم بالخراج وكيف تحسنت أحوالهم في عصر العباسيين . غير ان ذلك التحسين لم يدم طويلاً فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب الاستغلال بالحكم أو الاستئثار بالحياة واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبي وهو الضمان أو المعاوضة - كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على أن يدفع له ١٠٠٠٠٠٠ درهم في العام^(٣) مع ان ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١٥٠٠٠٠٠ درهم^(٤) وضمن البريدي الاهواز على أيام الراضي كل سنة ٣٦٠٠٠٠ دينار على ان يدفعها اقساطاً^(٥) وخارجها الحقيقي يزيد على اربعة أضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا نزيلاً مما تعهدوا به . فاذا ألح الخليفة عليهم في المطالبة اتخذوا الحاحه ذريعة الى الاستغلال التام فيستنجد الخليفة جنده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٨ (٢) المقرئ ١٠٦ و ١٠٨ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦ (٤) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

(٥) ابن الاثير ١٢٦ ج

(٤) اشتغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن وانتشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وعلت الاسعار وتعطلت الزراعة لضياح الأمن فعملت الجباية واحتاج العمال والفواد الى الاموال فظلموا الناس في تحصيلها منهم فزاد الخراب - وما من هادم للعمران كالظلم فانه يغفل الايدي ويفقد الناس عن السعي فينسلخ به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجاربه والصانع عن صناعته ووبال ذلك عائد على الدولة اذ لا قوام لها الا بالريعية . والمشهور ان الظلم أخذ المال من يد مالكه بلا عوض ولا سبب ولكنه أعظم من ذلك كثيراً فان كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة - فاذا ساد الظلم أقبل الخراب لا محالة

ومما زاد البلاء جسامته ان اكثر ما احتفروه الخلفاء المصلحون في أوائل الدولة العباسية من الترع والأنهر لري الارض وتسهيل الاستغلال انسدت بالحروب . لان المحاربين كثيراً ما كانوا يضطرون الى سد الأنهر لينعوا سفن الاعداء من المرور فيها (١) فضلاً عما يدعوا اليه افعال العمال من فساد الري وضياع الزرع

(٥) نحويل أكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع او ما يعبر عنه المصريون بالابعادية أو العزبة . ويغلب في الضياع ان تكون لاهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزراءهم او كتابهم أو من يلودهم من أهل النفوذ وقد رأيت صفحة ١١ من هذا الجزء ان عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع لحكمة ارادها من بقائهم على أهبة الرحيل عند الاقتضاء لا يعدهم الترف أو القصف كما نهى عن اختران المال في بيت المال . غير ان هاتين العاءدتين لم يطل العمل بهما الا ربما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك العضوض في أيام بني

أمية فاخزن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع والضياع كما يبناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين وكان اقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية فندا كثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يفضها اغتصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم لتعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم ولاعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم فما أرادوا اخذه أخذوه وما أرادوا تركه تركوه (١) حتى افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقتداء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل وأمر باسترجاع الضياع المغتصبة الى أهلها من النصارى أو اليهود أو المجوس فساء ذلك أهله فميجلوا به وعادت الاحوال بدمه الى أشد مما كانت عليه كما تقدم

فلما افضت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ عملوا السيف في بني أمية ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ولم يعدوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لا اعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة أو حقاً من حقوق الملك اذ ليس من أوامر الدين أو نواهيه ما يمنعهم من ذلك صريحاً . والانسان ميال من فطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلاً . فالخلفاء العباسيون في أوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس وتأمينهم ليمينوا لهم الفرق بين حالهم في أيام بني أمية وفي أيامهم فلم يكونوا يفتصبون ضيعة ولا مالاً ولكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم أو اتهموا اليهم من الامراء او الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس وكان الخلفاء ينصفون اصحاب الضياع اذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم (٢) على أن ذلك قلما كان يقلل من مطامع أهل الدولة في أهوال الناس فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم أو قبضوا أموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد باموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها ٥٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم في اليوم (٣) وأمثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التي سيأتي تفصيلها . فالضياع التي تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة أو الدولة

(١) المقرئ ٧٧ ج ١ والاغانى ٣٠ ج ١١ (٢) الماوردي ٨٧

(٣) المسعودي ١٨٨ ج ٢

قال ذلك الى استكثر الخلفاء أنفسهم من الضياع على ان أكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة وأهله . وذلك طبيعي في الحكومات الاستبدادية وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق أو ضعيفاً تؤثر عليه وساطة أهله ورجال حاشيته . ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهاونوا أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك . وفي اخبار البرامكة كثير من أمثال هذه العطايا . ومن هذا الفييل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المأمون فانه كتب ضياعه في رقاع اسم كل ضيعة في رقعة ونثرها على العواد فمن وقع له رقعة أخذ الضيعة المسماة فيها ^(١)

وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم — حتى في صدر الدولة العباسية — كثرة ما كان من الارضين المهمة من عهد بني أمية . فبأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم يصير له — كما فعل المنصور بابنه صالح اذ أمره بعبارة بعض المزارع العاطلة في الاهواز ^(٢) — ومن احيا أرضاً مواتاً فهي له

(الاجاء) ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة الجاء الاهالي ضياعهم ومغارسهم الى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعرزاً بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجئ الى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه ان يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يتجرأ الحياة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكنفون منهم بنصف الخراج أو رבעه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة . فنصبح تلك الضيعة بتوالي الاعوام ملكاً للمجأ اليه ^(٣) ويصبح صاحبها الاصلي شريكاً في غنائها . ومثل هذا الاجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم وقد بدأ الاجاء في الاسلام بأيام بني أمية لما كان من ظلم عائلهم . فأجأ أهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة أخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعرزاً به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في أعفائه حتى قامت الدولة العباسية فمبض الخلفاء العباسيين عابها في جملة ما قبضوه من أهوال بني أمية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن علي بن عبد الله بن عباس ثم صارت من

(١) أبو الفداء ٣١ ج ٢ (٢) الفخري ١٥٧

(١) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١

الضياع السلطانية^(١) وكذلك فعل بعض أهل المراغة في اذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى أرمينيا فلهم ألبأوا تلك الضيعة اليه نقبضت في جملة ما قبض من ضياعهم^(٢)

وامتد الاجلاء الى أيام بني العباس بالاستمرار فألجأ أهل زنجان ضياعهم الى العاسم بن الرشيد تهرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك منهم . فكتبوا له الاشربة وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية^(٣) وحدث نحو ذلك أيضاً في فارس فقد كان فيها ضياع الجأها أربلها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق وظلت تجري بأسمائهم خفف عنهم الربيع وبقيت أحياناً وهي في أمدى أهلها بأسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها^(٤) وأصبح أهلها مزارعين لهم

ولم ينقض عصر الزهو العباسي حتى أصبح في حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم ما لا يحصى عدده من الضياع واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعسورها سموه ديوان الضياع وهو غير ديوان الخراج . وقد رأيت مقدار خراج الضياع في ما دونه علي بن عيسى في جريدة سنة ٣٠٦ وكأها في بلاد المشرق في الري ودوماوند وقزوین وزنجان و قم واصبهان وهمدان و ماسندان وغيرها . وترى خراج الضياع في بعض الممالك يزيد على خراج الأرضين الأخرى . فخراج الضياع في ماه البصرة والايغارين مثلاً ٢٦٧ ٥٢٠ ديناراً وخراج سائر الارض هناك ٦٣٦ ١٨٠ ديناراً . ولو عوملت الضياع في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الأرضين الأخرى ل زاد خراجها أضعاف ذلك . لان خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به أعواماً على مقتضى أحوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء وربما تراكم الخراج عدة أعوام حتى تغير السياسة ويأتي من يطالب به^(٥)

(١) قدامة ٢٤١ (٢) ابن الفقيه ٢٨٤ (٣) ابن الفقيه ٢٨٢

(٤) الاصطخري ١٥٨ (٥) ابن الاثير ١٨٢ ج ٧

* الضياع السلطانية *

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه اقسام سميت باسماء تدل على انواعها وهي

(١) الضياع الخاصة : وهي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه أحد . وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى (غير ما كان منها في نواحي واسط لانه اضيف الى اموال العامة) ٥١٦ ٤٤٧ ديناراً

(٢) الضياع العباسية : وهي في الغالب لبني العباس أهل الخليفة وقد بلغ عددهم في أيام المأمون ٣٣ ٠٠٠ نفس^(١) وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ١٢٤ ٧٦٠ ديناراً سوى ما هو منها في واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قد رأيت خراجها في تلك السنة ٣٦ ٢٨٩ ديناراً
(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لانها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ١٢٦ ٦١٧ ديناراً

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان^(٢) يضمنونها احياناً باموال معينة في العام^(٣) ولها دواوين وكتاب وعمال فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها اخصب الارضين لان الخلفاء وعمالهم كانوا يفضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم^(٤) وقد يتركونها لهم ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها في واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر ان ذلك طبيعي في الدول المطلقة في تلك المصور فقد ذكرنا صفحة ٦٢ ان جباية الدولة العثمانية بلغت في أيام السلطان سليمان ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ دوكات منها ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ من الضياع السلطانية وحدها^(٥)

(١) ابو الفداء ٢٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٦٨ ج ٨

(٤) Bin. Abb. 80. (٥) Porter's Const. Hist. of Thurkey MS.

(الايغار) وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه «ايغار» ومعناه في الاصل «استيفاء» فيقولون «أوغر العامل الخراج اي استوفاه» ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الارض مرة واحدة ولذلك قالوا «أوغر الملك الرجل الارض جعلها له من غير خراج» أو هو أن يؤدي الخراج الى السلطان الاكبر فراراً من العمال ويسمى ضمان الخراج ايغاراً^(١) فكان اصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً. ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية «ايغار يقطين» وأصلها ان رجلاً اسمه يقطين أوغرت له ضياع من عدة الطماسيح ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين^(٢)

اسباب كثرة النفقات

(١) اسراف الخلفاء ونسأهم

من الامور الطبيعية في العمران اذا كثرت الاموال في الدولة ان يسخوها الملوك في بذلها وخصوصاً في الدولة المطلقة وعلى الاخص في الدولة العباسية والحليفة مطلق التصرف في بيت المال^(٣) ودعاة الخلافة كثيرون لا يفعد فتنهم غير استرعاء الاحزاب بالمال او كسر شوكتهم بالحرب والاول اسلم عاقبة واقرب منالاً اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون. فلا غرو اذا رأيناها يبدلان الاموال في استكفاف الاذى عن الدولة او سد افواه أهل الفتن. سكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجوازي واتخذوا الفرش من الخبز والديباج والحرير والمسامير الفضة^(٤) وابتنوا المنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الزناء وارتكبوا

(١) محيط المحيط (٢) قدامة ٢٤١ (٣) الماوردي ٢٠٣

(٤) اعلام الناس ٩٨

سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ^(١) وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الاموال

(ثروة نساء الخلفاء) لم يتزوج السفاح الامراة واحدة ^(٢) . وقبل ان يتوفي المنصور اوصى ابنه المهدي ان لا يشرك النساء في أمره ^(٣) ومع ذلك فان الخيزران ام الرشيد كانت هي صاحبة الامر والنهي في ايام الهادي وابامه وكان وزيره يحيى تحت امرها ^(٤) فافضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠٠٠٠٠٠ درهم ^(٥) وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد . وغلة اعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا ان اراد رو كفلر الغني الاميركي الشهير نحو ١٠ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه في السنة وغلة الخيزران اكثر من ١٠ ٥٠٠ ٠٠٠ دينار . وقد بينا في غير هذا المكان ان قيمة النفود كانت تساوي ثلاثة اضعافها اليوم والدينار نصف جنيه فتكون غلة رو كفلر نحو ثلثي غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغبة في الاستئثار فلما آتت في انها الهادي معارضة لارادتها دست اليه من قتله ^(٦) ولما مات توسع الرشيد باموالها واقطع الناس ضياعها ^(٧)

على ان الخيزران كانت من أهل العلم والرأي فلا غرابة في اقتنائها الاموال في ابان الثروة العباسية اما الغرابة في اقتناء أمهات الخلفاء الاموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيلة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار نفداً وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما تأتي بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠ ٠٠٠ دينار ^(٨)

(١) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢ (٢) اعلام الناس ٤٥ ٣ ابن الاثير ج ٨

(٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٥) المسعودي ١٨٨ ج ٢ (٦) ابن الاثير

٤٠ ج ٦ (٧) سير اللوك ٨٥ (٨) العليزي ١٧١٩ ج ٣

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار^(١) في العام تنفقها في جواربها وهي نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدته المقتدر ٦٠٠.٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها احد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله^(٢) وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من اطلاق الايدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه اطلق يد والدته ويد اتمامش وشاهك الخادم في ببوت الاموال وابعدهم فعل ما أرادوا . فكانت الاموال التي ترد من الافاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة^(٣)

فلا عجب والحالة هذه اذا تحول الغنى الى النساء والخدم والمواد . وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت انه كان بين رياش ام المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نفوس على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ؟^(٤) . او اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درا فباعه بفسرين الف دينار^(٥) او اذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء ؟^(٦)

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من الفهرمانات اللواتي كن يتولين شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير او من ينوب عنه^(٧) فكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي اعمال الدولة — كما كانت تفعل ام موسى الفهرمانة في ايام المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة^(٨) ولم يكن لاولئك الفهرمانات سبيل للاتفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم

(الجوارى واناملان) وقد رأيت في ما ذكرناه من مناقب المنصور صفحة ٩٨ انه لما علم بوجود الطنبور في داره كمره على حامله . ولكن لم يمض على موته

(١) الطبري ١٧٢٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٧ ج ٧ (٣) ابن

الاثير ٤٧ ج ٧ (٤) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٥) ابن خلكان

١٩٩ ج ١ (٦) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٧) ابن الاثير ٣٧ ج ٨

(٨) ابن الاثير ٢٤ ج ٨

اربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مرسجاً للغناء واللهو - قالوا انه كان في قصر الرشيد ثلثمائة جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى مغنية الى راقصة الى سنطيرية فضلاً عما كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ ابني الحسن الخليلي الدمشقي^(١) وابن ابني مريم المدني^(٢) وغيرها . وما من جارية الا وثمنها الف دينار أو عشرة آلاف دينار^(٣) الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الاخرى كاللبسة والحلي وهي شيء كثير . فعد اشترى الرشيد خاتماً بمئة الف دينار^(٤) وقس على ذلك

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١ ٠٠٠ خصي من الروم والسودان^(٥) غير ما يقتضيه ذلك من الابنية والقصور والرياس . فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم^(٦) وبنى الامين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم^(٧) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالاً عظيماً وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للاميين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برأ سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح ن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء اذا ما استعجلوها بحيثه وذهاب

ومما يحس ايراده مثلاً على بذخهم ان الامين المذكور امر يوماً ان يفرش له على دكان في الخلد ففرش عليها بساط ذرعي وعمارق وفرش مثله وهياً من آنية الذهب والفضة والجواهر امر عظيم وأمر قيمة جواربه ان تهى له مئة جارية صائفة فتصعد اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنين بصوت واحد^(٨) ففعلت

(١) اعلام الناس ٩٧ (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ١٢٦

(٤) ابن الاثير ٤٤ ج ٦ (٥) الفخري ٢٣٤ (٦) ابن الاثير ٢١١ ج ٨

(٧) ابن الاثير ١١٢ ج ٦ (٨) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦

وسنأتي على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق اسرافهم في الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

(السخاء) على ان الاسراف كان أكثره في ما يذلونه كرماء وسخاء ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صاب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته (١) وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦٠٠٠ درهم (٢) فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢٠٠٠٠٠٠ درهم وليس هذا بالتبذير الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . ففسد فرق المنصور في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أهل بيته (٣) وفرق المأمون في يوم واحد ١٥٠٠٠٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص (٤) وقد رأيت صفحة ٨٦ أنه فرق ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم ورجله في الركاب . وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم . وتصدق المعتصم في أثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٥) وبلغ ما أنفقه المعتصم ضياعاً ما خلا الارزاق ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٦) — فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مئة ألف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه العينة أو أكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالحاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها الا مئة ألف ألف درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠) فأعطاه إياها — وفي ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء (٧) وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلاً عن الاموال (٨)

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وأمثاله يحسبه أهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من العوائد الاقتصادية . على أننا لا نظنهم يقولون ذلك بعد ما تبين لهم من مفسدات الثروة العباسية ومفسدات ما كان يبقى من الاموال تحت تصرف الخلفاء أو من يقوم مقامهم كالوزراء والكتاب — الا اذا شككنا في حقيقة تلك الثروة وهو شك في

(١) الطبري ٧٤٠ ج ٣ (٢) الفخري ٢٠٧ ٣٠ ابن الاثير ١٣ ج ٦

(٤) ابن الاثير ١٦٧ ج ٦ (٥) الطبري ١٣٢٩ ج ٣ (٦) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

(٧) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٨) الطبري ١٤٦٨ ج ٣

التاريخ على اجماله . لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما يبناء من هذا القبيل كما رأيت . ثم اذا اعتبرنا نظام الحياة الاجتماعية في تلك الايام على ما سنفسله في الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم في مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين أغنيائنا اليوم من يبدل ٥٠٠٠٠ جنيه و ١٠٠٠٠٠ جنيه ثمن صورة أو قطعة من الآثار القديمة لا تقف ولا تضر . وقرأنا بالامس ان مورغن المثرى الامريكى الشهير اشترى صوراً بليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف

وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم أيضاً من سياق بعض الوقائع المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدي وهو ولي عهد قال : قدمتُ على المهدي في الري وهو ولي عهد فأمر لي بعشرين الف درهم لانيات امتدحته بها فكتب اليه المنصور (ابوه) يعزله ويلومه ويهول له « انما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم » — الى ان قال — وبعت المنصور يستعمني اليه حتى جيئت ودخلت عليه فقال « هيه أتيت غلاماً غراً خفدته » فقلت « نعم اصلح الله امير المؤمنين أتيت غلاماً غراً كريماً خدعته فأنخدع » فقال المنصور « انسدي ما قلت فيه » فأنشدته (ثم ذكر انقصيدة ومطلعها :

هو المهديُّ الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال « والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم » وقال « ابن المال » فلت « ها هوذا » قال « ياربيع ازل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقي » فخرج الربيع فحط ثفلي ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي (١) . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يهدرون الشعر بألاف الدراهم

هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقي علينا النظر في ما كان الخلفاء يهبونه من الجواز ونحوها هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولاً صريحاً . على أن سكوت المؤرخين عنه يرجح أنهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال - ولا جناح فيه عليهم لان الامام عندهم

هو ولي بيت المال ينفقه في ما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده وقد يرى في اجازة الشاعر أو هبة العالم فائدة للدولة

على اننا رأينا ذكراً لميت مال الخاصة في أيام الهادي ويظهر من سياق بعض الحوادث التي وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا امروا لشاعر أو غيره بمال انما يريدون ان يدفع له من بيت مال المسلمين وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون امر الخليفة في الصرف كما وقع لعيسى بن دأب مع الهادي - وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر أهل الحجاز أدباً وأعزهم الفاظاً وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله . فامر له مرة بثلاثين ألف دينار في دفعة واحدة . فلما أصبح ابن دأب ارسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب « هذا ليس اليّ فانطلق الي صاحب التوقيع والى الديوان » فعاد الى ابن دأب فاخبره فقال « اتركها » . فبينما الهادي في مستشرف له ببغداد رأى ابن دأب وليس معه الا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادي « أرى ثوبك غسلاً وهذا شئ يحتاج فيه الى الجديد » فقال « باعي قصير » فقال « وكيف وقد صرفنا اليك ما فيه صلاح شأنك » فقال « ما وصل اليّ » فدعا الهادي صاحب بيت مال الخاصة فقال « عجل الساعة ثلاثين ألف دينار » فاحضرت وحملت بين يديه ^(١) - فيظهر من سياق هذه الحكاية ان الخليفة أراد ان يدفع اليه المال من بيت المال العام فلما لم يدفعوا له امر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا العييل ما اتفق ليحيى بن خالد اذا أمره الرشيد ان يدفع ثمن جارية ١٠٠٠٠٠ دينار فاستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد فاراد يحيى ان يبين له مقدار ما تحمله بيت المال من هذا الاسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد اذا أراد الوضوء . فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما اخبروه انه ثمن الجارية ادرك اسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه خفّظ ذلك في نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة ^(٢)

واتفق نحو ذلك للوائح بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما مطل الوزير بالدفع أمره ان يدفع ضعفين ففعل^(١)

وفي كتاب ابي سفيان الثوري الى الرشيد جواباً على كتاب استدعاه به الى بغداد ما يشبه كلام ابي ذر الغفاري لمعاوية ويدلُّ على ان الرشيد كان يهب ويحيز من بيت مال المسلمين . وذلك ان الرشيد دعاه بكتاب بعثه اليه في الكوفة واخبره ان الناس قدموا اليه وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب السنية الخ . فاجابه ابو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفي حجة ذلك قوله « اما بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفقته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وانت ناء عني حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك . فاما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل . يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ... هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في ارض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟ أم رضي بذلك حملة الفران وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضي بفعلك الايتام والارامل أم رضي بذلك خلق من رعيتك . ؟ »^(٢)

فهذا وأمثاله يدل على ان الخلفاء كانوا يهبون ويحيزون ويندخون ويسرفون من بيت المال

تكاثر ابواب النفقة في الدولة

بيناً في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٠٣ (طبعة ثانية) كيف تدرجت الدولة الاسلامية في مصالحها منذ كان النبي هو الامير والوزير والقاضي والقائد حتى اصبح موظفو الحكومة في أيام الراشدين ستة وما كان من زيادتهم بزياد الحضارة واتساع المملكة في أيام بني امية فبني العباس . وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء فاصبحت في أيام الرشيد

أكثر منها في أيام المنصور وفي أيام المأمون أكثر منها في أيام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت في جريدة المتضد (صفحة ٦٤) من اصناف المرتزقين في بلاط الخليفة من العلمان والماليك واصحاب المطابخ والجلساء واصحاب الركاب ما لم يكن له ذكر في صدر الدولة العباسية . وقس عليهم اصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء مما لا يقع تحت الحصر وكله قد اقتضاه الترف في حضارة الدولة

وزد على ذلك ان بعض النفقات كانت تصرف من غير بيت المال فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لا سبيل الى معرفتها اذ لم يرد نص صريح بشأنها وان كنا نستبدل عليها ضمناً من نصوص كثيرة - مثل ما رآه من الفرق بين جريدة النفقات في أيام المتضد سنة ٢٧٩ هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦ هـ فانك تجد في هذه نفقات لا ذكر لها في تلك مثل نفقات الحرمين ورواتب الفضاة في الممالك وولاية الحسبة واصحاب البريد في جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة في تلك لان العمال كانوا يفومون بها من خراج أعمالهم كما اشرنا الى ذلك فلما ضعف الخلفاء وعمد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها وقد تقدم صفحة ١٩١ (طبعة ثانية) من الجزء الاول ان ارتفاع الثغور كان ينفق في مصالحها لا يرد منه شيء الى بيت المال على أنهم كثيراً ما كانوا يستوردون منها الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها في صدر الدولة العباسية^(١) أما في أيام الانحطاط فقلت الغزوات وبطلت الغنائم وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور وزادت عما كانت عليه في صدر الدولة حتى بلغت في أيام المقتدر نحو ٥٠٠.٠٠٠ دينار وكانت قبله ١٠٠.٠٠٠ دينار وهو مقدار ارتفاعها ينفق في مصالحها^(٢) - ناهيك بما حدث من نفقات الجند وغيره

(٣) زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد مصالح لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة . وطبيعي اذا كثرت ثروة

الدولة أن توسع على رجالها فتزيد رواتبهم وجوارهم . فإذا كانت تلك الدولة مؤسسة على اساس ضعيف لا تلبث أن تخط ثروتها وتبقى الرواتب كما هي فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطرون الى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً

كان المسلمون في أيام النبي وإبي بكر يرتزقون مما يقع في أيديهم من الغنائم فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً في السنة وميزهم باعتبار انسابهم من النبي أو سابقتهم في الاسلام ^(١) وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال فقد يكون احدهم كاتباً او عاملاً او قاضياً على السواء . فلما تفرعت مصالح الدولة وتميزت لم يروا بدءاً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب فجعلوا لكل من الجندي والعامل والسكران والحاجب والعاضي وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة في الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا لسواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصور فلننظر في تاريخ أشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه

(رواتب العمال) : كان راتب العامل في أيام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر ^(٢) ثم اختلف باختلاف العمال والاعمال ففد جعل عمر للمعاوية على الشام الف دينار في السنة ^(٣) ولما افضى الامر الى بني امية اصبحت ولاية الاعمال فوضى على ما تقتضيه الاحوال من اطماع العمال بنصرتهم او التوسيع لهم بالنفقة لحرب الخوارج او العلويين او غير ذلك . فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها - على ان ذلك كان خاصاً بالعمال السكار كما عمل العراقيين او مصر او خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هيرة امير العراق في أيامهم ٦٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة ^(٤) وبلغت غلة خالد القسري ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ^(٥) وليس هذا الاخير من قبيل ان راتب فلا يقاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم في أعمالهم كما كان يفعل الحجاج في العراق وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد على

(١) الجزء الاول ١٥٤ (طبعة ثانية) (٢) سراج الملوك ٢٧٧ (٣) القرظي

٩٥ ج ١ (٤) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ (٥) ابن خلدون ٩٦ ج ٣

٣٠٠ درهم في الشهر ^(١) وظلت على نحو ذلك في صدر الدولة العباسية الى ايام المأمون فزادها وزيره الفضل بن سهل في جملة ما زاده من الرواتب على اثر ما كان من تكاثر الثروة مع رغبة الخليفة في ارضاء نصرائه من اهل خراسان . اما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال لان العمل قد ينحصر في ولاية صغيرة او يعقد على عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان الى التبت طويلاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم (فروين) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة ٣٠٠٠٠٠ درهم في السنة وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين واعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين ^(٢) السيف والفلم ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رئاسة الحرب » ومن الجانب الآخر « رئاسة التدبير » ^(٣) - فعل المأمون ذلك له لما كان من نصرته اياه في خلافه مع اخيه الامين فلا يفاس به العمال الذين كانوا يتولون الاعمال الصغرى ومنهم بضعة عشر عاملاً تحت راية الفضل بن سهل في المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف ايضاً باختلاف الولايات ويظهر انها كانت تتراوح بين ٣٠٠ درهم و ١٠٠٠ قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم في ايام منصور بن نوح ^(٤)

وأعمال الولايات الكبرى التي كانت علاقتها رأساً مع الخليفة فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين ابن علي الماذراني على مصر في اوائل القرن الرابع للهجرة ٣٠٠٠ دينار في الشهر ^(٥) أو ٦٠٠٠٠ درهم ومقدار ذلك في السنة ٧٢٠٠٠٠ درهم وقس على ذلك فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام رأيناها فاحشة جداً . لان الولايات في الدولة العثمانية ثلاث درجات الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية في الشهر والثانية ٢٠٠ والثالثة ١٥٠ ليرة . وراتب عامل انكترا على الهند (حكمدار الهند) ٨٣٣ ٢٠ روية في الشهر ^(٦) أي نحو ٥٠٠٠٠٠ فرنك في السنة وهو

(١) الطبري ٤٣٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٦ (٣) الطبري ٨٤١ ج ٣

(٤) ابن حوقل ٣٤٢ (٥) Ein. Abb. 80. (٦) ويتكر ٤٦٦

أعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه أقل من راتب الماذراني المتقدم ذكره — ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

﴿رواتب الكتاب﴾ : وكانت رواتب الكتاب الى ايام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم فزادها الفضل بن سهل كما تقدم ولم تنف على مقدار تلك الزيادة . ولكن بالقياس على غيرها يجب أن تكون كثيرة . فضلاً عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية وقد عدّ دالمفرزي ما كان يستولي عليه كاتب من كتاب مصر في عهد الدولة الفاطمية في اليوم الواحد من البقولات والتوابل والحلويات والأمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ومن الالبسة والافرشة وما كان يجري من ذلك كله على اولاده واهله فاستغرق تعداده نحو صفحتين او ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب — فاكنتينا بالاشارة اليه تقادياً من التطويل ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك ^(١)

﴿رواتب الوزراء﴾ : الوزارة من محدثات الدولة العباسية وأول من اشتهر من وزرائها البراهمة ولم تنف على مدارير رواتبهم والظاهر انها كانت كبيرة . فضلاً عن اطلاق ايديهم في بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على اننا قد رأينا في قائمة النفقات في ايام المعتضد صفحة ٦٦ ان راتب الوزير ٣٣ ١ دينار في اليوم أو الف دينار في الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النفود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب في هذه الايام زاد هذا الراتب على ١٥٠٠ جنيه — وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير في الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية في الشهر الا الصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة . والوزير المصري راتبه ٢٥٠ جنيه في الشهر وراتب اكبر وزراء انكلترا ٢٠٠٠ جنيه في العام ^(٢)

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف الاعصر والدول — كان راتب الوزير على ايام الناصر الاندلسي ٨٠٠٠٠ دينار في السنة وهدايا ^(٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في اواسط القرن السادس الهجرية ١٠٠٠٠٠ دينار في السنة ^(٤) وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار اليها رواتب لاولادهم واخوتهم وخدمهم واتباعهم وارزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر . فقد كان راتب

(١) المقرئ ٣٩٩ ج ١ (٢) ويتكر ١٧٠

(٣) نفع الطيب ١٦٨ ج ١ (٤) الفخري ٢٧٨

الوزير في الدولة الفاطمية ٥٠٠ دينار في الشهر ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ثم حواشيهم على مفتضى عدتهم من ٥٠٠ — ٣٠٠ دينار ما عدا الاقطاعات (١) غير ما يجري عليه وعلى اهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار ايام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر . ومن الفاكهة سلة بدينار وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف حمل بلح (٢) وكان راتب الوزير في الدولة السلجوقية عشر مغل البلاد (٣)

(رواتب القضاة) : كان راتب القاضي في أيام الراشدين مئة درهم في الشهر ومؤونه من الخنطة (٤) ثم ارتقى في ايام بني أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨ هـ الف دينار في السنة (٥) أي نحو عشرة أضعافه في أيام الراشدين فلما افضت الخلافة الى بني العباس أنزلت الرواتب وصار راتب قاضي مصر في ايام المنصور ٣٠ ديناراً في الشهر . ثم تصاعد في عهد من خلفه حتى بلغ في أيام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤٠٠٠ درهم في الشهر أي نحو ٢٧٠ ديناراً ثم عاد في أيام ابن طولون الى الف دينار في السنة (٦)

واما في بغداد فلم نطلع على راتب القاضي في اوائل الدولة العباسية ولكننا رأينا في جريدة المعتضد ان راتب القاضي ١٦ دينار في اليوم او ٥٠٠ دينار في الشهر بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي - ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام فان راتب شيخ الاسلام في الاستانة لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية في الشهر مع اعتبار الفرق في قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

(رواتب الخلفاء واهلهم) : قد رأيت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاهل الوزراء والكتاب فبالاولى ان يفرضوها لانفسهم واولادهم والخليفة هو الغالب بيده على بيت المال . لسكتنا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لاهلهم من الضياع او الاموال واكثر ما كانوا يفعلون ذلك في أول

(١) المقرئ ٤٠١ ج ١ (٢) المقرئ ٣ ج ٢ (٣) ان خلكان ٧٣ ج ٢

(٤) سراج الملوك (على هامش المقدمة) ٢٧٧ (٥) السيوطي ١١٥ ج ٢

(٦) السيوطي ١١٩ ج ٢

الدولة اذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك^(١) فيتأعون البيعة بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى اذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ ١١ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم له ولاولاده^(٢) أو للتوسعة عليهم واستتصارهم كما فعل مع أعمامه فانه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك^(٣) ويظهر انها كانت تدفع اليهم في كل عام . ولما توفي ابنه المهدي فرض لاهل بيته كل واحد ٦ ٠٠٠ درهم في السنة^(٤) والظاهر أنهم بقوا على نحو ذلك فضلاً عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة وخصوصاً أبناء الخلفاء وولادة عهدهم فان الهادي أمر سنة ١٧٠ هـ لابنه الرشيد بمليون دينار وان يحمل اليه نصف الخراج^(٥) على أثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد والظاهر ان الرشيد زاد في رواتب اهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته . وكان اعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في ايامه ٣٣ ٠٠٠ نفس . ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما واشهد عليهما بذلك وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة ٢٠ ٠٠٠ دينار والمؤيد ما يتحصل منه ٥ ٠٠٠ دينار وحبسهما^(٦)

فلما كانت ايام ابن رائق امير الامراء في اوائل القرن الرابع للهجرة كفت ايدي الخلفاء عن بيت المال وصارت الى رجال الدولة — وأول من كفت يده الرازي بالله الذي توفي سنة ٣٢٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة في الاموال وصار الخلفاء في حاجة الى الاراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً^(٧) ويظهر ان الخلفاء لم يكن لهم قبل ذلك رواتب معينة غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع — الا أبا بكر فقد فرضوا له ٦ ٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف^(٨) ثم لم نذكر الرواتب الخلفاء الى أيام ابن رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي ٥ ٠٠٠ درهم كل يوم لتفقاته ولكنه لما كان يدفعها اليه^(٩) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتي ذكره في حينه

(١) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ (٢) الطبري ٤٢٠ ج ٣ (٣) سير الملوك ٦٥

(٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٥) الطبري ١٥٠٧ ج ٣ (٦) الفخري ٢٥٤

(٧) المقرئ ٩٥ ج ١ (٨) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

وفرض الاعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الان والغالب في الدول المتقدمة أن تكون تلك الرواتب معينة في ميزانياتها وهالك رواتب العائلة المالكة في انكلترا لعام ١٩٠٢

رواتب العائلة المالكة في انكلترا لعام ١٩٠٢

جنيه انكليزي	
راتب الملك	١١٠ ٠٠٠
راتب خدم القصر	١٢٥ ٨٠٠
نفقات القصر	١٩٣ ٠٠٠
نفقات اخرى وصدقات	٤١ ٢٠٠
(جملة مخصصات الملك)	٤٧٠ ٠٠٠
رواتب سائر اعضاء العائلة	١٦٠ ٠٠٠
	<u>٦٣٠ ٠٠٠</u>

وهذه رواتب العائلة الخديوية لعام ١٩٠٢

جنيه مصري	
مخصصات الحضرة الخديوية	١٠٠ ٠٠٠
مرتبات العائلة الخديوية	٩٧ ٩٢٧
نفقات كابينه الحضرة الخديوية	٥٧ ٤٣٤

٢٥٥ ٣٦١

ولجلالة السلطان راتب مقداره في الشهر ٧٠ ٠٠٠ ليرة عثمانية أو ٩٠٠ ٠٠٠ ليرة في السنة ما عدا النفقات والمخصصات (عام ١٩٠٢)

(رواتب حاشية الخليفة) : ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالأطباء والحجاب والحرس الخاص. ورواتبهم من بيت مال الخاصة. وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة وكانت كبيرة نستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن مجتهد شوع طبيب الرشيد ومنها رواتب نقدية

كان يقبض بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من بيت مال الخاصة واليك
راتب جبريل المذكور في السنة كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه^(١)
مرتبات جبرل بن بختيشوع طبيب الرشيد في السنة

درهم	من بيت مال العامة	
	راتب نقدي ١٢٠ ٠٠٠	
١٨٠ ٠٠٠	الزل ٦٠ ٠٠٠	
من بيت مال الخاصة		
	راتب نقدي ٥٠ ٠٠٠	
	ثياب قيمتها ٥٠ ٠٠٠	
	هدية على عيد صوم النصارى ٥٠ ٠٠٠	
	يوم الشعانين ثياب قيمتها ١٠ ٠٠٠ » »	
	الفطر نقداً ٥٠ ٠٠٠ » » »	
	ثياباً ١٠ ٠٠٠ » » » »	
	١٠٠ ٠٠٠ لفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠ ٠٠٠	
٤٢٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠ لشرب الدواء » » » » »	٥٠ ٠٠٠
(المجموع)		
٦٠٠ ٠٠٠		
من اصحاب الرشيد نقداً وثياباً واطياباً		
	من عيسى بن جعفر ٥٠ ٠٠٠	
	» زبيدة ام جعفر ٥٠ ٠٠٠	
	» العباسة ٥٠ ٠٠٠	
	» ابرهم بن عثمان ٣٠ ٠٠٠	
	» الفضل بن الربيع ٥٠ ٠٠٠	
	» فاطمة ام محمد ٧٠ ٠٠٠	
٤٠٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠ كسوة وطيب ودواب	
(المجموع)		
١٠٠٠ ٠٠٠		

١٠٠٠٠٠٠ (مجموع ما قبله)

من البرامكة

٦٠٠ ٠٠٠ من يحيى بن خالد

١٢٠٠ ٠٠٠ » جعفر بن يحيى الوزير

٢٤٠٠ ٠٠٠ » الفضل بن يحيى ٦٠٠ ٠٠٠

٨٠٠ ٠٠٠ غلته من ضياعه

٧٠٠ ٠٠٠ من فضل مقاطعته

٤٩٠٠ ٠٠٠ (الجملة)

فجملة رواتبه فقط ٤٩٠٠ ٠٠٠ درهم في العام فاذا جمع ذاك في مدة خدمتها كلها وهي ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢٧٠٠ ٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم في العشر السنين الاخيرة وهو ٢٤٠٠ ٠٠٠ درهم فالباقى ٨٨٧٠٠ ٠٠٠ درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام . وأما ما انفق فـ هو :

درهم

٢٧٦٠٠ ٠٠٠ نفقاته على نفسه وبيته في السنة ١٢٠٠ ٠٠٠ درهم عنها في ٢٣ سنة

٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ثمن دور وبساتين ومنزهات ودواب ورقيق وغيرها

٨٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ثمن آلات واجر وصناعات ونحو ذلك

١٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لخاصته

٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ثمن جواهر وما اعد له للذخائر

٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ما انفق في البر والصلوات والمعروف

٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ما كابر عليه اصحاب الودائع وجحدوه

١٢٨٦٠٠ ٠٠٠ (والمجموع في الاصل ٩٠٠ ٠٠٠ دينار و ٩٠٦٠٠ ٠٠٠ درهم)

وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الايام . فقد كانت غلة

صاحب حرس الرشيد ٣٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة . وغلة صاحب شرطته ٥٠٠ ٠٠٠

درهم وغلة حاجبه ١٠٠٠ ٠٠٠ درهم في السنة ^(١)

(رواتب الجند) : ينأ في باب الجند من الجزء الاول صفحة ١٥٥ (طبعة ثانية) كيف كان المسلمون كلهم جنداً وذكرنا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة وكيف تضاعفت رواتبهم فيه أوائل أيام بني أمية ثم نقصت في أواخرها ثم زادت في أوائل بني العباس ثم نقصت حتى صارت في أيام المأمون ٢٤٠ درهماً في السنة للجندي الراجل (النفر) فضلاً عن حصته من الغنائم اذا غزوا . ويظهر ان تلك الحصة كانوا يحبسونها عن الجند في صدر الدولة العباسية حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ هـ ان يردها عليهم اذا غزوا فردها فاصاب الرجل ستة . ناير^(١) ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده بالاعطيات فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة)^(٢) أي انه أعادها الى ما كانت عليه في أيام السفاح . فلما انتهت الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً

(الافشين وبلك) فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وكان ما كان من اقتتانه الأتراك والفراغنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للأسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بلك الحرمي في ارمينيا واذربجان . وكان بلك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه التغمص^(٣) فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة . فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بلك لانه أصبح في خطر منه على ملكه فبعث اليه أترাকে بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر بن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم اردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الحياط ثم انفذ اليه ايتاخ ومعه ٣٠٠٠٠٠ درهم لنفقات الجند . وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء يبابك الى سامراً فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون انهم نجوا من بلك على يده لانه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً فقتل في عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ نفس وغاب الى معظم فواد المأمون والمعتصم . فلما قبض الافشين عليه أمر

(١) الطبري ٩٧٢ ج ٣ (٢) الطبري ٨٣٠ ج ٣ (٣) ابن الاثير ١٣٤ ج ٦

المتعصم ان يركبوه على الفيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان بلبك عظيم الجثة . ثم ادخلوه على المتعصم في داره فأمر سياف بلبك نفسه ان يقطع يديه ورجليه فعضطها فسقط بلبك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان وصلب بدنه في سامراً . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المتعصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خاتمة وقرساً ويدفع اليه في اثناء اقامته بازاء بلبك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد الافشين تقدم المتعصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجواهر ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه (١)

فالافشين لم يثبت في محاربة بلبك الا طمعاً بالمال مع ما كان يواصله به المتعصم من الخلع والاموال في اثناء الحرب ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو في دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة او هدية بعث به رأساً الى بلده في اشروسنة وراء النهر بطريقة سرية فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المتعصم بشأنهم والمتعصم يأمره ان يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالا كثيراً جعله في اوساط اصحابه في الهمايين فبعث بن طاهر ففتشهم فوجد المال فقال « من أين لكم هذا المال » قالوا « للافشين » فأخذه وأظهر ان الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه وقد تبين من محاكمته انه لم يعتق الاسلام الا طمعاً في المال وانه لا يزال على المجوسية (٢)

وقس على ذلك سائر جند المتعصم فاهم انما كان يحاربون لجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم في اقصى الشرق — فكيف تستقيم دولة هذا جندها — على ان الحلفاء لم يكونوا يمجدون بداً من استنصارهم ولا سبيل الى ذلك الا بالمال . فكانوا يذلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها اقتداء بما كان

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع ارزاق الرجال وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيماً جداً - قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢ هـ « وذكر ان ارزاق الآراك والمعاربة والساكرية قدرت في هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون اليه في السنة ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » (٢) - ولان المراد ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم (لا دينار) اذ يسبعد ان يجتمع هذا المرد من الخراج دنابر في سنين لاسالو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً وهي قيمته في ذلك الحين كان خراج المملكة في السنة ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم وقد رأينا خراجها في ابان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم - فافاق ٢٠٠ دايون درهم على الجند في سنة واحدة امر عظيم جداً وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النفود في تلك الايام. ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند في هذه الايام (سنة ١٩٠٣) لان التمدن الحديث اقضى الاحتياط والتجديد واعداد المعدات حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا اضفنا اليها نفقات الاساطيل - فانه كثرت امثالا تنفق على جنديها برأ وبجرأ نحو ٤٠٠٠٠ ٠٠٠ جنيه في السنة اي نحو ١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فريك (أو درهم) وفراسا تنفق نحو هذا المبلغ وكذلك روسيا. وهو مع اعتبار قيمة النفود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفي ما كان ينفعه العباسيون تقريباً ولكننا اعظمنا ما انفقوه بالنظر الى ما كان من طرق اتفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب أموال الناس في منازلهم وحوادثهم لأقل سبب يحدث والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عففوا الناس لأنهم لم ينقلوا سلعتهم وامتعتهم الى مكان لا يعرفه الجند على ان الخلفاء كانوا ينشطون معالج الجند فيهم بما كانوا يشرطونه على انفسهم

من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الفلاني حتى في ساحة الحرب . فكانوا اذا اخذهم القتال وخاف الخليفة او الامير ضعفاً صاح في جنده « من جاء بأسر فنه عسرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ (١)

اما رواتب الجند العباسي اي ما كانوا ينقاضونه فدرأً معيناً في العام فقد تبين من قائمة نفقات الدولة في أيام المعتضد صفحة ٦٤ ان ارزاق الجند من الفرسان والمماليك ونحوهم لا تزيد على ١٥٠٠٠٠٠ دينار أو ٣٠٠٠٠٠٠ درهم . م استفحل أمر الجنود الأتراك بتوالي الانعام وتعددت مرتبهم ورايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره لانه يختلف باختلاف الأزمان والاحوال فضلا عن سكوت المؤرخين في هذا الشأن الا ما قد تناولوه عرضاً

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠٠٠٠ رجل بلغت رواتبهم ١٢٠٠٠ دينار في الشهر أي ستة دنانير كل واحد . وكان عدد الفرسان ١٢٠٠٠ فارس رواتبهم في كل شهر ٥٠٠٠٠٠ دينار وذلك نحو ٤٢٠٠ ديناراً لكل واحد . أو نحو ١٢٠٠٠ درهم في السنة للفارس و ١٤٠٠٠ درهماً للرجل . وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثورون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالفعل اذا لم يجيبهم (٢) . وتدخلوا في منازل الخلفاء ووضعوا ايديهم على الخلافة وصاروا يولون من سائر ائتات الاموال اقسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة أو الديوان الا القليل كما فعل اتامش وشاهت في أيام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ (٣) وكما كان المواد يطمعون بالخلفاء ويسبدون فيهم كانوا أيضاً يستأثرون بالاموال دون افراد الجند حتى كثيراً ما ثار هؤلاء على قوادهم وطلبوهم بالاموال وهددوهم واذا لم روا منهم اصعاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بوصف سنة ٢٥٣ هـ فان الأتراك والفرعنة والاسروسنة شغبوا وطلبوا أرزاقهم لاربعة اشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيا فكلهم وصيف بالخلفاء وقال لهم « خذوا التراب ليس عندنا مال » فوثب عليه بعضهم وقتلوه (٤) وكثيراً ما تظلموا الى الخلفاء وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار الى كبرائهم

(٢) صله تاريخ الطبري ١٤٢ — ١٥١

(١) اس الانير ٩٠ ج ٨

(٤) ابن الاثير ٧٠ ج ٢

(٣) الطبري ١٥١٢ ج ٢

من المعاون والزيادات في الرسوم القديمة مع ارزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج ^(١) حتى طلبوا التخلص منهم وان يمود الجند اخو الخليفة

(رواتب الجند الآن) على اتنا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامي على اختلاف عصوره من ايام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية وقسناها برواتب جنود هذه الايام (سنة ١٩٠٣) رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة . فقد رأيت ان راتب الجندي في أيام الراشدين من ٣٠٠ - ٥٠٠ درهم في السنة ثم صار في أيام بني امية الف درهم وتقلب في أيام العباسيين حتى صار في أيام المقتدر ١٤٤٠ درهم للراجل و ١٢٠٠٠ درهم للفارس في السنة - تلك رواتب افراد الجند (الانفار) عندهم مع أن راتب النفر في الدولة الانكليزية للرجل سليلين وللفارس سليلين و ٩ بنسات في اليوم ومقدار ذلك في السنة نحو ٤٥٥ فرنكاً (أو درهم) للراجل و ٨٠٠ فرنك للفارس على ان رواتب الجند عندهم تختلف في كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها في كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند في الدول الاخرى . وأما بالنظر الى الدولة العباسية فلها صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في الحالتين

ومن اسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم وان كنا لا نعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم الفواد . وهالك رواتب الجند الانكليزي من اكبر الضباط الى النفر العسكري في اليوم ^(٢) ثم رواتب الجندين العثماني والمصري

رواتب الجند الانكليزي في اليوم بالجنيه والشلين والبنس (سنة ١٩٠٣)

	الفرسان			المشاة		
	ج	ش	ب	ج	س	ب
الجنرال (المشير)	٨	—	—	٨	—	—
الفريق	٥	١٠	—	٥	١٠	—

	الفرسان			المشاة		
	ج	س	ب	ج	ش	ب
اللواء	٣	—	—	٣	—	—
اميرالاي	١	١	٦	—	١٨	—
قائمقام	١	١	٦	—	١٨	—
بكباشي	—	١٥	—	—	١٣	٧
يوزباشي	—	١٣	—	—	١١	٧
ملازم اول	—	٧	٦	—	٦	٦
» ثاني	—	٦	٨	—	٥	٣
النفر	—	١	٩	—	١	—

رواتب الجند العثماني في الشهر (سنة ١٩٠٣) رواتب الجند المصري في الشهر

قرش عثماني		قرش مصري	
المشر	٢٥٠٠٠	المشير (لا يوجد)	٠٠٠٠٠
الفريق	١٠٠٠٠	الفريق	٧٥٠٠
اللواء	٦٠٠٠	اللواء	٦٥٠٠
اميرالاي	٢٥٠٠	اميرالاي	٤٧٠٠
قائمقام	١٨٠٠	قائمقام	٣٠٠٠
بكباشي	١٢٠٠	بكباشي	٢٥٠٠
قولاغاسي	٨٠٠	صاغقولاغاسي	١٥٠٠
يوزباشي	٥٠٠	يوزباشي	٩٠٠
ملازم اول	٢٥٠	ملازم اول	٦٠٠
» ثاني	١٠٠	» ثاني	٥٠٠
نفر	٢٠	نفر	٣٠

(رواتب اخرى) : كانت سياسة الملك في تلك العصور تفضي استرضاء

بعض الناس ممن يخاف الحلفاء أقلامهم أو سنتهم أو احزابهم . لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم — والملك

لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام أكثر مما للصحافة في هذه الايام . فالخلفاء العملاء كانوا يؤثرون ملاقة شرور المعامرين بالاحسان اليهم او الرفق بهم وبفقطعون السننهم بالجواز الوقفية أو بالرواتب الجارية كما يفعل ملوك هذه الايام بالصحافة فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى ارباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه والبعض الاخر يبتاع مساعدهم في امراض الهمم او جمع كلمة الاحزاب . فالسعراء والخطباء ونحوهم كانوا سائهم في تلك الايام مثل سائر الصحافة اليوم . ولا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم وأول من تحدى ذلك في الاسلام معاوية بن ابي سفيان . فكان اسمع النهر يعرض بذيته ولا يحازي عليه الا بالاعطاء ولذلك كانوا يعسرون عن اجازة الشاعر ينقطع لسانه ^(١) وكان يفعل ذاك بالسعراء والوجهاء وعمرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الاعطية لروساء الاحزاب من بني هاشم والتالبيين ونحوهم وصاروا يهبون الاموال من مخافتهم على سلطانهم واكثر ما كان يهبه الخلفاء من الجواز والعطايا للوفود والسعراء انما كان يعطى انتموا ذلك الغرض

وكانوا يفرضون الرواتب احيانا لانهم يرحون بصرهم على مناظرهم في الملأ كما فعل العريز بالله الفاطمي سنة ٣٨١ هـ . علي بن الحسين من آل المغربي لما جاءه من بغداد فانه جعل له ٦٠٠٠ دينار في السنة وسماه من شيوخ الدولة ^(٢) وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز كما فعل الاخشيدي بمصر في أوائل القرن الرابع الهجرة فانه فرض للضعفاء والمستورن من ابناء النعم وأحناس الناس (ايسر فيهم أحد من الجديش ولا من الحاسية ولا من المنصرفين بالاعمال) رواتب تبلغ ممدارها في أيام كافور الاخشيدي ٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة ^(٣) فلا بد من ان يكون مثل هذه الرواتب في الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والاعوان ونحوهم من تدرج رواتبهم في نفقات الدولة فقد رأيت انها كانت كبيرة . ومن هذا الميل حواشي الامراء والعمال والوزراء وغيرهم وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف ^(٤) أو تزيد

(١) السطور ٣٤ ج ١ (٢) المغربي ٤٥٩ ج ٢

(٣) المغربي ٩٩ ج ١ (٤) اس الانير ١٨٣ ج ٧

عدد ايام الشهر

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في اiban ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الحياية تناقص ولم يعد في امكلمها تفيص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والماليك اقتداء بخلفائهم ولا في الامكان اقاتلهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب مياومة فاذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب الف دينار في الشهر مثلاً فبدلاً من ان يحبلوه ٨٠٠ دينار يبعونه على ما كان ويزيدون ايام ذلك الشهر فيجعلونها اربعين يوماً أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تمرياً شهر خاص يختلف عدد اياه عن ايام أسهر الآخرين

فعائمة النفقات المعتضد المذكورة في هذا الجزء (صفحة ٦٤) يختلف شهر كل من انتخاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالعلماء الذين اعتقهم الناصر كانت ايام سهورهم اربعين يوماً فأساوا الادب في مطالبة كانت منهم فعملها خمسين يوماً . ثم لما نولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزين كانت سهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسمينية ثم جعل سهور بعضهم ١٢٠ يوماً . وأشهر المختارين سبعون يوماً واشهر الفرسان المشتبين ١٢٠ يوماً وكذلك المرتقة برسم الشرطة بمدينة السلام والسعابين . وقس عليهم سائر الموظفين في هذه العائمة وغيرها . فالذي راتبه الف دينار في الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كانه تنزل الى الربع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويفصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يثور الجنود فاما ان يخلعوا الخليفة أو يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال

(٤) النفقة على البيعة

رأيت في ما تقدم ان الخلفاء في اوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم الى استرضاء أهل الحرمين وكانوا يحملون اليهم الاموال ويذلون لهم الاعطية

ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتمصم وقوي جند الأتراك أهمل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم أو بالحري الى المال - لان الأتراك إنما يحاربون مع صاحب المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى خاطرهم او الى من يدفع المال اليهم على ان الخلفاء كانوا من أوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ويسمون ما يدفعونه اليهم في هذا السبيل « حق البيعة » فلما تولى الامين فرق في الجند رزق ٢٤ شهراً^(١) ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المأمون أن يبايع لعلي الرضا صرف للجند راتب شهر على أن يصرف لهم الباقي اذا أدركت الغلة^(٢) فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو امية يعطون في مقابل البيعة ولاية عمل يجملونها طعمة عدة سنين كما فعل عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير في مكة ويخاف منه فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين^(٣)

وأما بعد أيام المعتمصم فاصبحت البيعة تجارة يناها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لانهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو اكثر أو أقل على قدر مطامعهم^(٤) وهناك من أمثال هذه المطالبات ما لا يعد ولا يحصى فتراجع في تاريخ الخلفاء العباسيين . فانسغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة واختلت الاحكام واصبح همهم منصرفاً الى حفظ ارواحهم واسنبعاء ضياعهم وصارت البلاد فوضى للجند أو لمن يستطيع استخدامهم واشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الاعمال بوجه الاجمال

وزاد أهل البلاد شعماً ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي استخرجوه من الاهالي . وكثيراً ما كان يحدث ذلك في اثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء . فعند نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في اثناء الحصار بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠٠٠٠٠٠ دينار^(٥) ولما عين الخليفة المستكفي شيرزاد أميراً للامراء في تلك السنة زاد هذا

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) الطبري ١٠١٣ ج ٣ (٣) ابن الاثير

١٦٨ ج ٤ (٤) ابن الاثير ٧٥ ج ٨ (٥) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨

اعطيات الجند زيادة كثيرة على جاري عاداتهم عند كل بيعة لكنه لم يجد في بيت المال ما يعطيهم فقسط الاموال على العمال والكتّاب والتجار وغيرهم وظلم الناس . فظهرت الاصوص في بغداد وأخذوا الاموال نهباً ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى^(١)

قال ذلك وامثاله الى تابع الاحن على البلاد فتقاعد أهل المدن عن العمل كما تقاعد أهل العرى عن الزرع وغلت الاسعار وتوالى الجوع اعواماً على مدن العراق وخصوصاً بغداد فكثرت الاصوص وصاروا طوائف عديدة لا عمل لهم الا النهب عند سروح الفرصة وخصوصاً في اثناء الفتن . ومنهم العيارون والشطار . ولم يجد الخلفاء مالاً يستأجرون به جنداً لدفع الفتن او اخضاع الثورات . على انهم كثيراً ما كانوا يمسكون عن دفع المال ولو كان في خزائنها لانهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث للمعتدر سنة ٣٢٠ هـ فانه امسك عن دفع الاموال وهي عنده وعند والدته حتى آل الامر الى قتله بمساعي مؤنس الخادم . فكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم^(٢) حتى تجرأوا على نهبهم ومصادرتهم كما حدث للمطيع سنة ٣٦١ هـ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين وسبوا واحرقوا ففر بعض اهلها الى بغداد يستجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة فشقبت الناس وخافوا فطلب بختيار (صاحب الامر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم فقال المطيع « ان العراة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تزميني اذا كانت الدنيا في يدي ونجبي الى الاموال وأما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء وأما يلزم من البلاد في يده وليس لي الا الخطبة فاذا شتمت ان اعتزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانفاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠ ٠٠٠ درهم . فشاع الخبر ان الخليفة صودر . على ان المال المذكور لم ينفق في الغزاة وإنما انفقه بختيار في مصالحه^(٣) وما اشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الاتراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية في القرن الثامن عشر وبعيده ولا ندري كيف كان حالهم لو لم ينكهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦

(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

(١) ابن اثير ١٧٦ ج ٨

(٣) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨

فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء حندها لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السلطة ولما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في خلافة المطيع شغب الجند عليه واسمعهو المكروه فضمن لهم اىصال ارزاقهم . ولما اعجزه ذلك من طرق الحلال اضطر الى ضبط الناس واخذ اموالهم من عبر وجوهها فلم يفقه ذلك شيئاً فارتأى ان يسلم العرى والضيايع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويسنغلوها وسلم اليهم صيايح الخلافة وضيايع اصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين وزالت أيدي العمال . وكانت البلاد قد خربت للاسباب التي قدمناها فاستأثر المواد بالعرى العامة فرادت عمازها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الانبياع العرى الخبرة فرادت خراباً فردوها وطلبوا عبرها وأهملوا الاهتمام بمنارب العرى وسبوبة طرقها فهلكت وبطل كثير منها . أخذ عامان المنقطعين في تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان مد اكثر من اعطاء علمائه الاراك والزيادة لهم في الاقطاع فسددهم الدليم فرادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما ^(١)

(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة نرونها وانغمس الملك في الترف والمصنف ونفاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه محول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو ينوسطون بينه وبين الناس كالوزر والعامل والكتائب والحاجب والعائد ، أصبح الامر والنهي في أيدهم . فبمسائرون بالاموال لانفسهم يحجبون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبدخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا في الدولة المطلعة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء او الكتائب أو الحجاب في عصر الترف والتفاعد يكون له نحو ذلك النفوذ وخصوصاً في مثل الدولة العباسية لان وزراءها وكتلتها من أمة لم تتم دولتهم الا بها ولم يزه تمدهم الا بعلمائهم . ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة

والسيف القاطع حتى في ابان تمدنها — اعتبر ما كان من نذوذ البرامكة في ايام الرشيد وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم حتى كان يحتاج الرشيد الى اليسير من المال فلا يقدر عليه ^(١) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد ^(٢) نكسهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور وفوض اليه الدواوين وانشغل المهدي عنه باللهو وسماع الاغاني فعظم ذلك على الناس وخصوصاً العرب فهجوا يعقوب ومن ذلك قول بشار بن برد

بني امية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود ^(٣)

ووشى بعض الناس الى المهدي بذلك فاستدعاه وقبض عليه وسجنه وظل في سجنه أعواماً طويلاً

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكنم القاضي اذ عهد اليه بتدبير مملكته واكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة ^(٤) ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون أوصى أخاه المعتصم قائلاً « لا تتخذن وزيراً تلقى اليه شيئاً فقد علمت ما نكبتني به يحيى بن اكنم في معاملة الناس وخبث سيرته » ^(٥) . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصاً لانهم في الغالب من الفرس وكانوا يصفونهم بالجين والبخل وقبول الرشوة — قال اعرابي يصف وزيراً

ومظهر نسلك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
أخال به جيناً وبخلاً وشيمة تخبر عنه انه لوزير ^(٦)

على ان الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضناً ببیت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لا طمعاً به لانفسهم كما اتفق للوائق مع وزيره ابن الزيات اذ اعجبه صوت غنّته جارية اسمها علم فامر لصاحبها بخمسة آلاف دينار فقتل ابن الزيات في دفعها فغضب الواثق وأمره أن يدفع ضعف ذلك المال فدفع اليه ١٠٠٠٠ دينار ^(٧)

(١) المسعودي ٢٠١ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

(٣) الفخري ١٦٦ (٤) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ (٥) الطبري ١١٣٩ ج ٤

(٦) الطبري ١٠٨٨ ج ٣ (٧) ابن الاثير ١٣ ج ٧

وكان الوزراء يزدادون نفوذاً واستثنائاً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء حتى صارت معظم الاموال اليهم

(الوزراء) : بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال في أيام الزهو كان الاموال تحوّل من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح انظار اهل المطامع يبدلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها . على انها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند (١) ولكن الغالب ان تبدل الاموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً الى الخليفة كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠ ٠٠٠ دينار حتى استوزره الرازي في اوائل القرن الرابع للهجرة وكما فعل ابن جهمير اذ ابتاع الوزارة من القائم بامر الله بمبلغ ٣٠ ٠٠٠ دينار (٢) او بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال . وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم انهم يسترجعون في اثناء وزارتهم اضعاف ما بذلوه بما تصل اليه ايديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم

ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء ان الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة واخذ من كل واحد رشوة فأنحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق فقالوا كيف نصنع فقال احدهم ينبغي ان اردنم النصفه ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده احد فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الاخير نحو الكوفة وعاد الباقيون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال . وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة

ويبدني من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعة

اذا اهل الرشى صاروا اليه فاحظى القوم أوفرهم بضاعة (٣)

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم على أن بعضهم وهو نادر لم يكن يقبل الرشوة ولا يعمل الا بالحق مثل عبيدالله

(١) ابن الاثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩

(٢) الفخري ٢٥٣ و ٢٦٦ (٣) الفخري ٢٤١

ابن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً — ذكر الفخري ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠ ٠٠٠ دينار وثلاثين سقفاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر «لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك» ثم فتح الاسفاط وأخذ منها منديلاً وضاه تحت نخبه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر (١)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر وهو صاحب جريدة الخراج التي نشرناها صفحة ١٠٧ من هذا الجزء . ولا يخلو ان يكون غيرهم قد اخلاص الخدمة ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء في عصر التقيهر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً باختزان الاموال . فان أبا الحسن بن الفرات وزر المقتدر ثلاث دفعات الاولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار اخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الاخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار وضياح يستغل منها كل سنة ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٢) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه . وكان اذا ولي الوزارة يغلو الثلج والشمع والكاغد لكثرة استعماله له لانه ما كان يشرب أحد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقيسة . وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شيء منه اخذه (٣) وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين الف درهم وللشعراء عشرين الف درهم ولاصحاب الادب ٢٠ ٠٠٠ درهم وللفقهاء ٢٠ ٠٠٠ درهم وللصوفية ٢٠ ٠٠٠ (٤) وكان يجري الرزق على خمسة الاف من اهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما

(١) الفخري ٢١٦ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٣) الفخري ٢٤٠ (٤) ابن الاثير ٥٧ ج ٨

بين ذلك^(١) فقطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله وقطع السنة الشعراء وكسر أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا اموالاً طائلة وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ وذلك طبعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة . لان الوزراء كانوا يجمعون الاموال الكثيرة حشما كانوا في العراق أو في مصر أو الاندلس . فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملئكه أحد قبله وارتفعها ٤٠٠٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب واعطى وافضل وحج ٢٧ حجة انفق في كل منها ١٥٠٠٠٠ دينار^(٢) . ويمقوب بن كلثوم أول وزراء الفاطميين كان في حلة املاكه اقطاع في الشام دخله ٣٠٠٠٠٠ دينار في السنة وخلف املاكا وضياعا وقيامر ورباعا وخيلا وبغالا ونوقا وغير ذلك ما قيمته ٤٠٠٠٠٠٠ دينار غير ما انفق في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جوارى الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية^(٣) وخلف الافضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار عينا^(٤) و ٢٥٠٠٠٠ دراهم نقد مصر و ٧٥٠٠٠٠٠ ثوب ديباج اطلس و ٣٠ راحلة احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار ومئة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مئة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما احب لبسه و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مالا يحصىه عد^(٥)

وقس على ذلك احوال الوزراء في الاندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة فقد أوردها ابن خلدون والمقري وفصلها هذا الاخير تفصيلاً حسناً في ثلاث صفحات كبيرة^(٦)

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٢) المقريزي ١٥٥ ج ٢ (٣) المقريزي ٦ ج ٢ (٤) وهو في الاصل ستمائة الف دينار ولا بد من خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل ان يجتمع هذا المال عند واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لمئة سنة فالارجح ان يكون المراد ستين الف دينار كما قلنا . ويستبعد ان يكون المراد دراهم بدل دنانير لان اموال مصر قلما قدرت بالدرهم (٥) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٦) مع الطيب ١٦٨ ج ١

وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في ابان روتها وبعيدها فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون في استغلالها بان يففوها على بعض المساجد بشرط ان يستولي ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا انفسهم من خراجها أو عشورها (١)

أما الابواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الاموال بها فكثيرة من جعلتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم وما برد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه . ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيسنولون على ما شاؤا بغير حساب ناهيك بما كانوا يمدون اليه ايدهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان وقد تقدم ان طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره

ومن أبواب الكسب أيضاً ان بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم الى المال فكان بعض الوزراء يعيم من قبله أناساً يشترون توفيعات ارزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة (٢) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضاً في رواتب الفقهاء وارباب البيوت فكانهم كانوا يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين فضلاً عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً أو خراجاً على سبيل الرشوة او الاقتسام وما كانوا يفتصبونه من التجار بنفوذهم واعضاء الخلفاء عنهم (٣) وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم ايضاً تنقيص عيار النقود فكانوا يضربون الدنانير ناقصة فيربحون من ذلك مالا طائلاً (٤)

تلك كانت حال الوزارة وفي ايديهم الحل والعقد ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الانراك واستبدادهم في الخلفاء ومطالبتهم بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلاً الى ذلك الا بمطالبة الوزراء فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو ما يعبرون عنه بالمصادرة . وكانت المصادرة رائجة في عصر التقهر اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل او بهما جميعاً

Porters's Const. Hist. of Turkey, Ms. (١)

(٢) ابن الاثير ٨٤٤ ج ٨ (٣) الطبري ٧٠٣ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١٤٩ ج ٨

(المصادرة) : هي قديمة في الاسلام تتصل بعصر الراشدين وأول من صودر العمال . فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال — كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين ^(١) وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بني أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في اواخر الدولة لا يعزلون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل اليه أيديهم من أمواله وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً »

ولما تسنم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال في أوائل الدولة من أخوتهم وأعمامهم ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم فخنق العمال الى الطمع والعنف في استخراج الاموال حتى في أيام المنصور فكان لا يعزل عاملاً الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » ^(٢) وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة ١٥٨ — ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر في المظالم — وما هي الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالأمون الى المهدي في أواسط القرن الثالث

ومن نبيه الخلفاء الى مظالم العمال الوزراء لانهم كانوا يباشرون الاعمال عن الخلفاء وخصوصاً البرامكة فكانوا اذا استشارهم الخليفة في ولاية عامل ينووا له ما يعلمونه من هذا القبيل — استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية خراسان علي بن عيسى بن ماهان فاشار عليه أن لا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص علي اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلها قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد أعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد « يا أبا علي هذا الذي أشرت علينا ألا نولي هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك البركة » فقال « يا أمير المؤمنين جعلني الله فداءك انا وان كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فاني أحب أن يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته انقب وعلمه

(١) اليعقوبي ١٨١ ج ٢ والبلاذري ٨٣ و ٣٨٥ (٢) الطبري ٤١٥ ج ٣

اكثر من علمي ... ان لم يكن وراء ذلك ما يكره ... ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف واخذوا اكثرها ظلماً وتعدياً . ولو أمرني أمير المؤمنين لاتبته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد « وكيف ذلك » قال « قد ساومنا عوناً على السقط الذي جاء به من الجوهر فاعطيناه به ٧٠٠٠٠٠٠٠ فاقب أن يبيعه فابعث اليه الساعة بمحاجبي يأمره أن يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاء به ججدناه وربحنا ٧٠٠٠٠٠٠٠ م كننا نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك » ^(١) وفي كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب

وقد رأيت أن الطمع تطرق الى العمال حتى في أيام الزهو العباسي ولسكن البرامكة أخلصوا المشورة فغلوا أيدي العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان في من جاء بعدهم من الوزراء الخلفاء وغير الخلفاء فاطلقت أيدي العمال وأحرزوا الاموال لانفسهم وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الاموال الطائلة

(العمال) : وغنى العمال ميسور في تلك الاعصر بالنظر الى استقلالهم في ادارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمل الاستيلاء المفوضين في كل شيء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها ان العامل اذا جاء عمله فاول شيء يتوقعه أن يحمل اليه الناس الهدايا وفيها الدواب والجواري والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً ^(٢) وقد يترك ذلك في مقابل ما يقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة أو الوزير أو القهرمان أو الكاتب أو الحاجب أو غيرهم من حاشية الخلفاء ^(٣) على أنهم كانوا يكتسبون من مصادر أخوى كالاتجار باصناف البضائع والاشخاب وغيرها ^(٤) ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال في ارضاء الوزراء او لادخاره والاتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن أوسع أبواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسي ان ثلث أموال تجار البين كان يذهب الى السلطان ^(٥) وكانوا يأخذون على حمل الخنطة هناك نصف دينار

(١) الطبري ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٣) Ein. Abb. 80

(٤) المقرزي ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١ (٥) المقدسي ١٠٤

ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل على بناء بيت أو جسر أو على جفر ترعة أو نهر الف دينار مثلاً ويطلب بعشرة آلاف أو مئة ألف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين ألف دينار^(١) فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها^(٢) وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التي يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب -- فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يقل كل يوم ١٠٠٠٠٠ درهم^(٣) وبلغت أموال علي بن عيسى بن ماهان ٨٠٠٠٠٠٠ درهم^(٤) فلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستخراج وهو المصادرة وكان الغالب في بادئ الرأي أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى فانه عزله واستصفى أمواله المذكورة وحملها مع خزائنه واثاثه على ١٥٠٠٠٠٠٠ جمل غير ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ^(٥)

(مصادرة الوزراء) : على ان مصادرة العمال لم يطل أمرها بالاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل فاصبح المطلوب منهم لبيت المال في الغالب مالا معيئاً في العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحولت الثروة المقتسبة الى الوزراء وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلاً لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم -- لا يرون في ذلك جوراً ولا سدة لاعتبارهم ما في أيديهم مختلساً من حقوق بيت المال

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ولكنها كانت في أول الامر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو التخلص منه لغرض آخر . ومن هذا الصيل مقتل ابي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس فبعد ان أيد دعوتهم بأمواله كما أيدھا أبو مسلم الخراساني بسيفه وشي الى السفاح انه ينوي اخراج الدولة من أيديهم فاعز الى ابي مسلم فقتله ثم أصاب ابا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة - ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد والفضل بن مروان في أيام المعتصم . وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض أمواله لان المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ واخذ من داره ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار واثاثاً وآنية

(١) Bin. Abb. 76 (٢) للاوردي ٧٨ (٣) المسعودي ١٨٨ ج ٢

(٤) الطبري ٢١٣ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٨١ ج ٦

قيمتها ١ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار^(١). ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواز على أموالهم

وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) لان الوزراء استخفوا به لصغر سنه وافضى تدبير الامور في ايامه الى امه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدور امورها على تدبير النساء والخدم فخربت الدنيا وخلت بيوت الاموال وخلع واعيد ثم قتل^(٢) وكثر تبديل الوزراء في ايامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات وزر له ثلاث مرات وقد تقدم ذكر ما احتشده من الاموال وقد صودر فاخذت كلها منه . وخلفه الخاقاني وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم علي بن عيسى وكان فاضلاً ورعاً حاول اصلاح الامور فلم يستطع لتمكن الفساد من عروق الدولة . ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب في استخراج الاموال . ووزر له عبيد الله بن محمد . واحمد بن عبيد الله بن الحبيب . ومحمد بن علي بن مقله الخطاط الشهير . وسليمان بن الحسن بن محمد . وعبيد الله بن محمد انكلاوذي . والحسين بن القسم^(٣) وما من وزير الا وقبض أو صودر فأخذت امواله وسجن أو قتل . وكثرت المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام . وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على ٤٠٠٠٠ ٠٠٠ دينار — على أنهم قدروا جملة ما انفقه من الاموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و ٧٠٠٠٠ ٠٠٠ دينار سوى ما انفقه في الوجوه الواجبة^(٤) وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

فأصبحت المصادرة بتوالي الايام المرجع الرئيسي في تحصيل المال — فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . على ان الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لارزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة كما تعتمد دول أوروبا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير

وكان الخلفاء يعتبرون اموال أولئك الوزراء أو العمال حقاً لبيت المال قداغتنصبوه فاسترجاعه لا يعد جوراً أو اجحافاً . وقد نجاهم ذلك من انتقال الدين الاهلي الذي تنقث تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه في وفائه

(١) ابن خلكان ٤١٥ ج ١ (٢) الفخري ٢٣٦ (٣) الفخري ٢٣٩

— ٢٤٩ (٤) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

أو استهلاكه وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك حتى أصبحت تلك الدول وخصوصاً انكلترا تنكف الناس جعلاً على كل عمل يرجون به كسباً
 (الكتاب) : وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالهم ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الحياة رأساً. وقد كانوا يطمعون بتلك الاموال في أيام بني أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع امرهم ويخشي شرهم الا في عصر التقهقر العباسي . فامر الوائق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزاهم مالا كثيراً استخرجه منهم بالغنى^(١) وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ^(٢) . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة يدت المادرائي بمصر^(٣)

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين بل كان يتناول كل كاتب من كتاب اهل الخلفاء وغيرهم . وكانت اكثر اموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجاء الشعراء كما هجوا هؤلاء — من ذلك قول بعضهم وهو يمدح احد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

هو ما علمت من الامير فما الذي تزداد منه وفيه لا يرتاب
 لا تتقي الاجناد في ايامه فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب
 وقال ابن حبيب الشاعر الكوفي يهجو الوزير والكتاب معاً :

ونجا خالد بن برمك منها اذ دعوه من بعدها بالامير
 اسوأ العالمين حالاً لديهم من تسمى بكتاب أو وزير^(٤)

وكان من ابواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل احمد بن ابي خالد الاحول كاتب المأمون في توليته لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣٠٠٠٠٠ درهم^(٥) وكان كتاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال في ما يأتيهم من الهدايا أو من الرشوة وقد يقاسموهم على النصف^(٦)

(الحجاب) : وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاء الامر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بابواب الخلفاء فأنهم من

(١) الطبري ١٣٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٥ ج ٧ (٣) القرطبي ٣٣١ ج ١

(٤) الفخري ١٥٨ (٥) اليعقوبي ٥٥٤ ج ٢ (٦) القرطبي ٩٩ ج ١

أكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الاموال من تقديم الداخلين أو تأخيرهم والاذن لهم أو منعهم فكانوا يرتشون للتعجيل في الاذن بالدخول على الخلفاء وكان ذلك شأنهم حتى في عصر الراشدين - قال المغيرة ابن شعبه « ربما عرق الدرهم في يدي ارفعه ليسهل اذني على عمر » (١) وكثيراً ما كانوا يتوسطون في تولية المناصب بالرشوة كما توسط الربيع حاجب المنصور ليعقوب ابن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠ ٠٠٠ دينار (٢) ويقال نحو ذلك في كل من يتوفق الى دالة على الخليفة أو الامير ولو كان خادماً

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم ان الدولة العباسية لما غلب الجند على امرها واستبد قواد الاتراك بها تحولت ثروتها من بيت مالها الى أيدي رجالها ممن ينوبون عن الخليفة أو يتوسطون بينه وبين الرعايا كالعمال والوزراء والكتاب والحجاب ونحوهم . واصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتصاب أموال أولئك الموظفين فكانوا كالذي يفتدي بأكل لحمه قال ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد ان بلغت غاية الضعف

وقد يتبادر الى الازهان ان لثقل الضرائب دخلاً كبيراً في سقوط الدولة العباسية وقد رأيت ان الضرائب كانت ثقيلة في عصر الزهو العباسي - عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلاً . بل ساءت حالهم منذ خففت الضرائب - ليس لان تخفيض الضرائب يسوء الناس ولكن تخفيضها في تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة اصحاب المطاعم من رجال الدولة وكانت الاحوال قد اختلت بفساد النيات للاسياب التي ذكرناها فزال الامن واحتل النظام العام فتقاعد الناس عن العمل وقلت وارداتهم وعجزوا عن اشباع مطاعم رجال الدولة . فعمد هؤلاء الى العنف في استخراج الاموال فتعاطم الاضطراب وتضاعف الضيق في الناس حتى سئموا الحياة في دولة لا يؤمنون فيها على ارواحهم ولا اموالهم

(١) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٥ ج ٧ (٢) الفخري ١٦٦

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انكلترا من أقرب الدول الى الخراب لما فيها من اصناف الضرائب التي لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لانها فضلاً عن ضرائبها على المحصولات والواردات على اختلاف اصنافها تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلاً على اية مهنة يريد الناس معاطاتها حتى الحمامة والطب في مقابل الاذن لهم في الاشتغال بها . والجمل المذكور ثقیل يختلف في من ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنيتهاً الى عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيدالة والحامين حتى الخطباء والوعاظ وعلى البنوك وأوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانكليز فلها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء . فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها . والدولة الانكليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد واكثر ما تكون حاجتها الى المال في حال الحرب كما فعلت بميزانية سنة ١٩٠١ في اثناء حرب الترانسفال فقد قدرت دخلها لذلك العام ١١٧ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وخرجها ١٥٤ ٠٠٠ ٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أي نحو $\frac{3}{4}$ في المئة فجعلتها شليناً في كل جنيه أي خمسة في المئة . فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت قيمتها ١٧٥٢ ٠٠٠ جنيه وضريبة على سائر الخمر قيمتها ١٠١٥ ٠٠٠ جنيه وعلى التبغ ١١٠٠ ٠٠٠ وعلى الشاي ١٨٠٠ ٠٠٠ جنيه وغير ذلك . فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات لنخفضت ضريبة الايراد اربعة بنسات أي انها ارجعتها الى ما كانت عليه فقلت حصة الحكومة من الايراد ٨ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه وخفضت أيضاً ضرائب القمح وغيره

وجملة القول ان انكلترا مع كثرة ضرائبها وما اثقل كاهلها من الديون فلها تعد من اثبت الدول قدماً وأوفرهن ثروة . فتخفيض الضرائب لاشك انه رحمة للناس ولكن زيادتها لا تدعو الى الخراب وإنما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » فانه يقوض اركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدي عن العمل فيقعد الزارع عن

زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته — ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء
ولذلك قالوا « العدل أساس الملك »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنيمة للاجناد الغرباء يحملون اموالها الى
بلادهم وأصبح الوزراء والعمال انما يعملون لحشد الاموال وامسى الخليفة لا سلطان
له حتى على قصره وبين غلمانه وجواريه تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية
لان الجباية منهم فظالموهم بها بدون ان يساعدوهم على استغلالها فساءت حالهم كما علمت.
اما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية والمبادئ الاقتصادية فلا يطالب
احد من الناس الا بما يقتنع هو انه حق صريح والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة —
وسنعود الى هذا البحث في بعض الاجزاء التالية

ثروة المملكة العباسية

أي البلاد واهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة العباسية ورجالها وبقي علينا النظر في ثروة
المملكة وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة
والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين المدن والقرى :

(المدن) : كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملاً بقاعدة التمدن
في تلك الايام وهي ان تكون الثروة والابهة حينما يكون ولاية الامر أو من يلونهم
من الخليفة الى اهله فاهل بلاطه فعماله ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن
وخصوصاً العواصم ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة
والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها وظلت القرى والضياع مغارس لا عمارة فيها
ولا تكاد تجد أثرأ من آثار ذلك التمدن في غير المدن

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد
بحوار الخليفة ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع
والمجوهرات والاقشة . وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون

والندماء يعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه أو رجال دولته
ويمثل طبقات الناس في تلك الايام قول الفضل بن يحيى « الناس اربع طبقات
ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلهم الفطنة والرأي وعلية أنصهم اليسار وأوساط
الحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غناء لكع ولكاع وربيطة. انصاع
هم أحد هم طعمه ونومه » (١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة وعلّة كثرة جبايتها
لاعتباره ان الدولة أو السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران قال : « فاذا
احتجن السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قلّ حينئذ
ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلة
نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيفع الكساد
حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج
والجباية انما تكون من الاعمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد
والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة اموال السلطان حينئذ بقلة الخراج.
فان الدولة كما قلنا هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها واصلاها ومادتها في الدخل
والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق ان يلجئها مثل
ذلك واشد منه » اهـ

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من الملوك وهم الاصل ثم رجال الدولة وأما
يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم . ثم الاغنياء واخيراً الاوساط وهم
جمهور الناس ويكونون كما يشاء اولئك . وذلك يخالف حال الهيئة الاجتماعية في
هذا العصر عصر الحرية الشخصية فالناس فيه مستفلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه
عضواً من أعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه سواء كان صانعاً أو كاتباً أو تاجراً
أو موظفاً

أما في العصر العباسي فقد كان اهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتحوم
آمالهم حولهم — يلتقطون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون بما يصل اليهم
من أموال الجباية فاذا كثرت أكثروا واذا قلت أنلوا . والجباية من الخراج

والخراج على الارضين والارضون انما يعمل بها الفلاحون وهي القرى. فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين — والفلاح اساس الثروة في كل العصور وخصوصاً في البلاد الزراعية. وهو في الغالب اقل الناس حظاً منها وخصوصاً في عهد التمدن القديم أو ما نسج على منواله اذ كانت الثروة والقوة في ايدي فئة الحكام أو من ينوب عنهم او ينتمي اليهم ويبقى سائر الناس اعواناً او اتباعاً او خدماً او عبيداً. يشتغلون اما بالصناعة لاصطناع ما قد يحتاج اليه اولئك من اصناف الابنية والالبسة والاثاث والمجوهرات او لخدمتهم في قصورهم بالطبابة او الكتابة او لتجميع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف أو لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما. واما للفلاحة في الارض واستغلالها والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس في كل زمان. وسنفصل ذلك في الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها للاسباب التي قدمناها. فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود ويديت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والالوف كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة المجوهرات والرياش لانهما مما تتطلبه المدينة في عهد الترف والبذخ. فقد رأيت في بعض ما تقدم ان جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ درهم فلم يبيعه^(١) وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه. وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما اخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠٠ دينار^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر. بلغ خراج املاكه ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة^(٣). وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها. فقد كان في اصطخر بيت ينتسب الى آل حنظلة احدثهم عمرو بن عينة بلغ من يساره انه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠ درهم. ومنهم مرداس بن عمر كان خراج هذا البيت من ٣٠٠٠٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه^(٤) وكان في سيرا ف تجار واسعو الثروة يجوز مال احدثهم ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة

(١) الطبري ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٣٣٣ ج ٨ (٣) ابن الاثير ٢٠ ج ٩

(٤) الاصطخري ١٤٢

البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلقل وغيرها ^(١) . ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها ٣٠.٠٠٠ دينار ^(٢) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل قبله ١٠٠٠.٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته ^(٣) وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم أو خدمهم في بلاطهم في إبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالاً طائلة حتى المغنين والشعراء . فقد توفي إبراهيم الموصلية مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤.٠٠٠.٠٠٠ درهم ^(٤) وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي ٩٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود (صفحة ١٤١)

واعتبر ذلك في سائر البلاد والاحوال فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء أو من ينتمي اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء الى أولي الامر الاندلس

(القرى) : أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الاصلين ويسمونهم « أهل الحراج » فهو لاء يعملون بالاجرة او شركاء لاصحاب الاملاك من الخلفاء أو الامراء او من ينتمي اليهم من الاعيان خصوصاً الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام فلما كان الاسلام تقربوا من الحكومة باموالهم ^(٥) ونفوذهم في أهل بلادهم ويندر ان يكون للفلاحين ملك خاص بهم لاسباب تقدم بينها

فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم باود حياتهم ويغلب فيهم الفقر المدقع وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره فكان أهل الدولة في المدن يبدلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات والآلاف أهل القرى في فقر مدقع لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاثاً . ولو دفعت اليه عشرة دنانير أو عشرين لصابه خبل أو مات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون أمير مصر في اواسط القرن الثالث للهجرة وهو مشهور بكرمه وبذخه بما انشأه من القصور والغياض والاسطبلات . وكان ينفق كل شهر الف دينار على

(١) الاضطخري ١٥٤ (٢) ابن حوقل ١٩٨ (٣) ابن حوقل ٢٠٧

(٤) سير الملوك ١١٣ (٥) ابن الاثير ١٠١ ج ٥

الفقراء وهو الذي جاءه وكيه يوماً فقال « أني تأتيني المرأة وعليها الازار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني فاعطياها » فقال له « من مد يده اليك فاعطه » ^(١) ومع ذلك فان هذا الامير نفسه ركب في غداة باردة الى جهات المقس بجوار الفسطاط فاصاب بشاطئ النيل صياداً عليه خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله وقد اتى الشبكة في البحر فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال يانسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له الغلام « هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً » فقال « فتشه يانسيم » فزول وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فخرض الصبي ان يأخذها فأبى وقال « هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتي » فأحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة وان تحبس عليه وكتب اسمه من اصحاب الجرايات وقال « انا قتلت اياه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتية هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينيه » ^(٢)

فإذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحي العاصمة فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الإسلامية

نريد بالمدن الإسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم . وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس . والمدن الإسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والعااهرة ومنها ما انقرض وعفت آثارها كالفسطاط والزهراء . وسندكر اشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها في ابان التمدن الاسلامي تمة لموضوع هذا الجزء .

(١) ابن خلكان ٥٥ ج ١ (٢) المقرئ ١٢٣ ج ٢

واكتننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية في ما حمل العرب أو المسلمون على انشاء تلك المدن

كان المسلمون في صدر الاسلام غرباً اهل خيام وماشية وخيل يكرهون الاقامة ضمن الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر كانوا في بادئ الرأي اذا ساروا الى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم فاذا فتحو اقاموا في ضواحيه بخيامهم واخيبتهم وهو معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الامصار ان لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في القسطنطينية وسعد بن ابى وقاص في الكوفة^(١) والبصرة وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فنوا البصرة والكوفة والقسطنطينية على هذه الصورة

فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تذكراً لفتوحهم أو تحصناً بها من اعدائهم - كما فعل المنصور ببغداد فانه بناها حصناً له وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها وابتعاداً عن الفوضى مثل سامراء والمنوكية والزهراء وغيرها مما يطول بنا ايراده فلنأت الى وصف اشهر المدن الاسلامية في ابلان ثروتها

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية كما يصف السياح اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن أو مساحتها الا نادراً . وانما كان همهم تعداد ما في تلك المدن من الجوامع والحمائم والغالب أن يبالغوا في ذلك الى ما يتجاوز طور التصديق كما سترى . واليك وصف أشهر المدن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها

البصرة

هي من أقدم المدن التي بناها المسلمون ولا تزال باقية الى الان . مصورها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة^(٢) وقد اتخذها العرب في بادئ الرأي

معسكراً في مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمال وجبال وسهول لا يفصل بينهما نهر . وبنوها أولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها بالبن باذن عمر كما سيأتي في الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل لكل قبيلة خط وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً وهو مربدها وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرباط خيولهم وقبور موتاهم وتلاصقوا بالنازل (١) ونظراً لموقعها التجاري فرضة للعراق ووسطاً بين الشام وفارس أسرع اليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق في أيام بني أمية . فعمرت البصرة في أيامهم واتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها في اماره خالد بن عبد الله (القسري) فرسخين في فرسخين أي ٣٦ ميلاً مربعاً في أرض منبسطة لا جبال فيها وذلك أوسع من مدينة القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم

وكثر ثروة البصرة في أيام العباسيين لاجتماع التجار فيها وتجاراتهم تمتد شرقاً الى الهند والصين وغرباً الى أقصى بلاد المغرب وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن ترسو في مينائها وتحمل أصناف التجارات من الاقشة والاطياب وغيرها وتكاثر الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للتجار أو الاقامة فابتنوا فيها القصور والحدائق وانشأوا الميادين والبرك — قال ابن حوقل « وهي موصوفة بالمجالس الحسنة والمناظر الانيقة والميادين العجيبة والفواكه البديعة والبرك الفسيحة لا تحلو من المتزهين ولا تعرى من المطرقين منحدريين ومصعدين . . »

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية . وقد ذكرنا في مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبیه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠ ٠٠٠ دينار في العام . فقس عليه التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير

واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات حتى ضرب المثل في ذلك فقالوا « وابد الناس نجعة في الكسب بصري وخوزي ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الاقصى (في الغرب) فلا بد من ان يرى بها بصرياً أو خوزياً (من اهل خوزستان) أو حيرياً (من اهل الحيرة) » (٢) وشأهم في ذلك شأن السوريين اليوم أوهو دأبهم من عهد الفينيقيين

وقد نقلنا في الصفحة ١٠٠ من الجزء الاول من هذا الكتاب (طبعة ثانية) ما قاله الاصطخري عن سعة مدينة البصرة وعدد أنهارها على أيام بلال بن أبي بردة (سنة ١١٨ هـ) ^(١) وأنها زادت على ١٢٠٠٠٠ نهر تجري بها الزوارق وان الاصطخري نفسه شك في صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه . فذهب بنفسه لمشاهدة المكان في القرن الرابع للهجرة فلما عينه قال « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الأنهار في أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع قريباً رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صفاراً تجري في كلها زوارق صفار ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذي احتفروه او الى الناحية التي يصب فيها فجوزتُ ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » ^(٢) وقال نفس هذا القول ابن حوقل في عرض كلامه عن البصرة ^(٣) . ومع ذلك ما زلنا نستكبر هذا العدد حتى رأينا علماً دقيق الملاحظة أقام في البصرة أعواماً طويلاً وخبر أرضها فذكرنا له ذلك فهون علينا تصديقه بما يدينه لنا من سعة البصرة في تلك الأيام وحفر الأنهار وامكان اشتباكها بحيث تحول الى مجار قصيرة هم يسمون كلاً منها نهراً — ويؤيد ذلك أنهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التي ذكرنا ان مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً وإنما يضمون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عند بحر فارس مع ما كانت عليه من الخصب وكثرة الغرس — قال ابن حوقل والاصطخري « ولها نخيل متصلة من عبادسي الى عبادان نفياً وخمسين فرسخاً متصلة لا يكون الانسان منها بمكان الا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها » — فاعتبر هذه المسافة طويلاً في مثل نصفها عرضاً على الاقل أبح ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١٢٥٠ ميلاً مربعاً فيعقل أن يكون في الميل الواحد عشر ترع صغيرة والله اعلم

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر بناها سعد بن أبي وقاص . ويقال في سبب بنائها ان سعداً بعد ان فتح العراق وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وفداً يخبره بذلك الفتح . فلما وصل الوفد الى عمر رأى ألوانهم قد تغيرت وحالهم قد تبدل فسألهم عن سبب

(١) ابن الاثير ٩٣ ج ٥ (٢) الاصطخري ٨٠ (٣) ابن حوقل ١٥٩

ذلك فقالوا وخومة البلاد غيرتنا . فامرهم أن يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين لان العرب لا يوافقهم من البلاد الا ما يوافق ابلهم وكتب الى سعد « ابث سليمان وحذيفة رائدين فيلرتادا منزلاً رباً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر »^(١) ففعل سعد ذلك فاختاروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الحيرة وبنوها اولاً بالقصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الحيام فاحرقوا فاستأذنوا عمر في البناء بالبن فاجابهم الى ذلك على شرط أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة ابيات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شأن كبيرة عند الشيعة لان الامام علي جعلها عاصمة مملكته الى ان قتل

الفسطاط

هي اول مدن المسلمين في القطر المصري بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة في ما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بقاياها جامع عمرو والاطلال والخرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاؤا لفتح حصن بابل وهو المعروف اليوم بدير النصارى أو دير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه عزموا على الاسكندرية لفتحها فامر عمرو بنزع فسطاطه (أي خيمته) فاذا فيه عمام قد فرخ فاخبروا عمرأ بذلك فقال « لقد تحرم بنا بمحرم » فامر بالفسطاط فأقر كما كان واوصى به من بقي هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشير به بالسكنى فيها . فسأل عمر الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل » فنكتب الى عمرو « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم عليكم قدمت »^(٢) فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل . فلما بلغوا فسطاط الامير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور فنزلوا فيه وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالفسطاط . ثم انضممت القبائل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاخبط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام اربعة من كبار

رجالهم ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم^(١) ثم اخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال^(٢) وذكره مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوكة و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمته الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احنُّ الى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ان لا يحل بها القطر

وهل في الحيا من حاجة لجنابها وفي كل قطر من جوانبها نهر

تبدت عروساً والمفطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر^(٣)

وبلغ من تراحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم الحارويه^(٤)

واشتهر من تلك الابنية دارٌ ضرب المثل بعظمتها وغنى اهليها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربع مئة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقت المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة بيبكر واطناب لها ترخي وتملاء . وذكر رجل دخلها في اوائل القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنتان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »^(٥)

وفي ذلك دليل على غنى أهل الفسطاط وترفعهم ومن هذا القبيل استكناهم من الفرش . فقد يقتني أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة وذكروا رجالاً من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها --- وقد تكون أعانها فاحشة فلا يزالون لغنائهم --- قال القاضي ان

(١) ابن حوقل ٩٦ (٢) المقرئ ٣٤٠ ج ١

(٣) المقرئ ٣٣٠ ج ١ (٤) المقرئ ٣٣٠ ج ١

قطر الندى ابنة خازويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بتأنيهم في المأكل والمشرب مما يطول شرحه وقد فصله المقرئزي وغيره في كلامهم على الفسطاط

بغداد

هي عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم وقد تغير موضعها مراراً . والسبب في بنائها ان السفاح لما بويع بالخلافة واكثر أنصاره في العراق وفارس نزل الكوفة ومعه أخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها^(١) وبها مات السفاح وقبره فيها . واقام المنصور في الهاشمية بضع سنين ثم ثار جماعة الراوندية فكره سكنها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة فدلوه على مكان بغداد وحسنوه له فبنى فيه مدينة سماها بغداد وعرفت بمدينة المنصور

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه . فلما كانت أيام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة وسمى ذلك المكان عسكر المهدي . ثم انتقل اليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة الزهر . وبسمى جانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ

وبلغت بغداد معظم عمارتها في أيام المأمون حتى امتدت ابنتها وبساتينها على . . . قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢٦٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي ٢٧٠ في الجانب الغربي^(٢) والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته الى انسان كنسبة ١٠٠ الى ٣٣٣ فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان وهو شيء كثير . واسكن يظهر أنها عبارة عن مدن متلاصقة — قال الخطيب البغدادي في تاريخه أنها أربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام^(٣) وقد أراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال « وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام وأقل ما يكون في كل

(٢) سير الملوك ٥٥

(١) ابن خلكان ١٥١ ج ١

(٣) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١

حمام خمسة نفر حامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل وذكر ان يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ثلاثمائة الف مسجد وتقدير ذلك أن اقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان» (١)

ولا ينطبق هذا التخريج على ما نعلمه من أحوال هذه الايام فلا نسلم به كما هو ولكنه يدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة في عهد ذلك التمدن العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في أثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال «وقيل انه عبر الجسر من العامة في ذلك الوقت ١٠٠ ٠٠٠ انسان في الزواريق ..» (٢) فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبر فلا نبالغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد — قال ابن حوقل وقد رآها في اثناء القرن الرابع للهجرة «وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه أنهار من الفرات .. الخ» (٣) وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقبروات في بلاد المغرب وواسط في العراق وغيرهما في مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها مثل دمشق الشام وقرطبة وغرناطة وطليطلة والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرها في ما سندكره من حالتها الاجتماعية في بعض الاجزاء الآتية ان شاء الله

﴿ تم الجزء الثاني ﴾

فهرست الجزء الثاني

من تاريخ التمدن الاسلامي

صفحة	صفحة
٩٥	٣ المقدمة
٩٧	٩ ظواهر التمدن وحقيقته
١٠٠	١٠ ثروة الدولة في عصر النبي
١٠٠	١١ » » » الراشدين
١٠٥	١٨ » » » بني امية
١٠٧ ٣٠٦	٢٨ العصر العباسي الاول
١١٤	٣٣ ثروة للدولة العباسية في العصر الاول
﴿ أسباب قلة الجباية ﴾	٣٦ جغرافية مملكة الاسلام في عصر المأمون
١١٦	٤٥ علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة
١١٧	٤٧ جباية الدولة العباسية في العصر الاول
١١٩	٦١ مجمل » » » » »
١٢٠	٦٣ نفقات الدولة العباسية
١٢٠	٦٤ » » » في ايام المعتضد
﴿ أسباب كثرة النفقات ﴾	٦٧ تقدير هذه الثروة بنقود اليوم
١٢٥	٧٠ اسباب الثروة العباسية
١٣٢	﴿ أسباب كثرة الخراج ﴾
١٣٣	٧١ سعة المملكة العباسية
١٤٩	٧٣ اشتغال الناس بالزراعة
١٥٢	٨٠ ثقل الخراج المضروب
١٦٣	٨٦ سائر مصادر الجباية
١٦٥	٨٩ صدق العمال في ارسال المال المجموع
١٦٩	﴿ أسباب قلة النفقة ﴾
	٩١ قلة الموظفين

